السَّفينةُ أو الطوفان..

الطبعة الأولى
1444هـ
2023 م

اسم الكتاب: السَّفينةُ أو الطوفان..
التأليف: أ.د. خالد فهمي
موضوع الكتاب: إسلامي
عدد الصفحات: 96 صفحة
عدد الملازم: 6 ملازم
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 249255 / 2022
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 8796 - 02 - 5

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

السَّفينةُ أو الطوفان..

استراتيجياتُ الرعاية الوالديةِ القرآنية
في مواجهة الجريمةِ الاجتماعية

أ.د. خالد فهمي
كلية الآداب– جامعة المنوفية

دار البشير للثقافة والعلوم

إهداء

المقدمة

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [سورة الفرقان ٢٥/ ٧٤] وبعد..

فهذه قراءةٌ جديدة تستصحب بعضًا من قواعد التفسير الموضوعي الذي انتشرت خدمته في العصر الحديث؛ لأسبابٍ عديدة معرفيةٍ واجتماعيةٍ وحضارية.

لقد أفزعت صور الجريمة الاجتماعية في المجتمعات العربية بوجهٍ عام، والمجتمع المصري بوجهٍ خاص في العقود الأخيرة -وتعيينًا مع بدء الألفية الثالثة- قطاعًا كبيرًا من الأمة، وتوجه نفرٌ كريم ممن أفزعهم تطور الجريمة الاجتماعية -كلٌّ في ميدان عمله واختصاصه- إلى نمطٍ من العمل الإيجابي لفهم هذه الظواهر السلبية، ومحاولة التفكير الجاد في خلق مساراتٍ علاجية تحاصرها، وتمنع في المستقبل من انتشارها.

والحقيقة أنني من المؤمنين إيمانًا راسخًا بما أسميه (التنزُّل المتجدد) للقرآن الكريم، وأنَّ الأمة مأمورةٌ بمعاودة النظر في الكتاب العزيز على ضوء ما يجدُّ في واقعها من مشكلاتٍ وأزمات.

وقد كنت سميت ذلك باسم (تفسير القرآن الكريم وفق قواعد رعاية الزمان)، وإن القرآن بوصفه كلام الله، وينهض تفسيره على تطبيقات قواعد اللسان، وإن القرآن الكريم بوصفه كلام الله الخاتم ينهض تفسيره على رعاية قوانين الزمان.

وهذه الدراسة محاولةٌ تهدف إلى فحص استراتيجيةٍ قرآنية فاشيةٍ في الكتاب العزيز كله، تتمثل في العناية بمشاهد الرعاية الوالدية، وأثرها في تربية الأمة، والنهوض بالأبناء؛ ليكونوا صالحين نافعين.

(١)

يمكن تعريف الرعاية الوالدية بأنها: «ممارسة أدوارٍ في تربية الأطفال تربيةً سوية، (تهدف) إلى تكوين الشخصيات القادرةً على إدارة ذاتها، وبناء العقول ذات الكفاءة في التعامل مع المواقف الحياتية بكل معطياتها الجديدة». على حد تعبير (عزيزة محمد السيد) في مقدمة ترجمتها لكتاب [الوالدية ودعم السلوك الإيجابي، ميم هاينمان وآخرين، ترجمة عزيزة محمد السيد المشروع القومي للترجمة، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ع١٨٠٣ سنة ٢٠١١م] (ص٧).

والرعاية الوالدية تدور حول تقديم الدعم العملي للسلوك الإيجابي للأبناء في الحياة من طرق:

- المبادرة والإيجابية.
- احترام مواهب الأبناء.
- احترام حقوقهم في الوصول لاختياراتهم في الحياة.
- الوقاية من حدوث المشكلات.
- استبدال السلوك.

[انظر: الوالدية ودعم السلوك الإيجابي ، ص ص ٣٩-٥٤].

والحقيقة أن أدبيات الوالدية المعاصرة تركِّز على دور قيادة الأسرة (الأب- الأم) في تحقيق استراتيجيات دعم السلوك الإيجابي.

(٢)

وقد حملني التفكير والنظر بالأمر إلى إعادة النظر في الكتاب العزيز، من أجل التقاط حزمةٍ من المشاهد القرآنية التي يمكن أن تمثِّل استراتيجيةً قرآنية تعين على مساعدة الوالدين في المجتمع العربي المسلم في تحقيق القيام بمسئوليات الرعاية الوالدية، وتعزيز سياسات الدعم للسلوك الإيجابي لدى أولادهم.

وقد حرصت هذه الدراسة على ما يلي:

أولًا- اختيار نصوصٍ تغطي مساحات التنزيل العزيز الزمانية الممتدة على طول تاريخ الرسالةً النبوية الشريفة؛ لندلل على مركزية عناية الكتاب العزيز للرعاية الوالدية.

ثانيًا- اختيار نصوصٍ تستوعب صور الوالدية في كل تجلياتها، أصيلة في الأب والأم البيولوجيين، وبديلة فيمن ينهض بدور الوالد وهو ليس بوالد بيولوجي من جانب، ومجتمعة ينهض فيها الأب والأم معًا بدورهما في دعم السلوك الإيجابي، أو منفردةً ينهض فيها الأب وحده أو الأم وحدها بهذا الدور؛ لظروفٍ خاصة.. إلخ.

ثالثًا- اختيار نصوصٍ تستوعب مربعًا واضحًا يمثل من وجهة نظرنا مراحل تطور حياة الابنً وهذا المربع يشمل ما يلي:

أ-مرحلة البدايات، سواءً البيولوجية المتمثلة في الميلاد، أو البدايات النوعية المؤثرة؛ لتكوين أسرة بالزواج.

ب-مرحلة الإقامات، أو الاستقرار في بيئةٍ معينة.

ج-مرحلة الكفالات أو البرامج التي يلزم أن يتعرض لها الأولاد في عمليات التنشئة.

د- مرحلة القيام بالمسئوليات.

رابعًا- اختيار نصوص تعكس التنوع والخصوصية التي تميز كل نوع من نوعي الجنس الإنسانيِ: الرجل، والمرأة، أو الولد والبنت.

(٣)

إنَّ هذه المحاولة اجتهدتُ أن تسير وفق خطةٍ واضحة تتمثل في الإجراءات المنهجية التالية:

أولًا- التمهيد بيد يدي كل مبحثٍ أو مرحلة من المراحل الأربعة المدروسة بإضاءةٍ تكشف عن طبيعة كل مرحلة على حِدة.

ثانيًا- اختيار نصَّين في كل مبحثٍ أو مرحلة، يغطيان مساحات التنوع في النوع، والمواقف، الظروف.

ثالثًا- البدء بتحليل كل نص من نصَّي كل مبحث بما يكشف عن حضور مبادئ الرعاية الوالدية وأصولها التي رأينا أنها مرادة من الكتاب العزيز.

رابعًا- التنبه بدعم ما استنبطَته هذه الدراسة من كل نص بما ورد في التفاسير المعتمدة وكان اعتمادنا بالأساس على ثلاثة تفاسير مختارة هي:

الأول- تفسير النُكت والعيون للماوردي(ت٤٥٠هـ)؛ لأنه جامع بين مدرستي التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، في استيعابٍ وإيجاز وتنظيم.

الثاني- تفسير الطبري(ت)؛ لأنه أصل أصول التفسير بالمأثور في حضارة المسلمين.

الثالث- تفسير القرطبي (ت)؛ لأنه أجمع تفاسير الكتاب العزيز الفقهية التي توجهت إلى العناية بتفسير الأحكام، والفقه علم من علوم الضبط الاجتماعي بكل وضوح.

(٤)

والحقيقة أنَّ هذه الدراسة مدينةٌ بالأساس للأستاذ (عادل حزين)، الذي حفزني إلى كتابتها في محاولةٍ مخلصة وأمينة منه بوصفه ناشرًا منتميًا مهمومًا بتقدم وطنه وأمته وسعادة أبنائهما.

لقد اعتذرت له ابتداءً، ثم ما زال بي حتى شرح الله صدري إلى إنجاز ما أنت واجده في هذه الدراسة، ثم إنني شاكرٌ لبعض أصدقائي الذين ناقشت معهم الفكرة؛ وأخصُّ منهم صديقي وتلميذي د. (عبد المنعم عبد الحميد).

وأسأل الله تعالى أن يتقبلها، وينفع بها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

خالد فهمي

السفينة أو الطوفان..
استراتيجيات الرعايةِ الوالدية القرآنيةِ
في مواجهة الجريمةِ الاجتماعية

أ.د. خالد فهمي

كلية الآداب-جامعة المنوفية

أولاً
طُهر البدايات
(١)

يقول ربُّ العزة سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾[سورة آل عمران ٣/ ٣٣-٣٦]

هذا نصٌّ عزيز جدًا، يكشف عن ملمح ظاهر مما أطلقنا عليه (طُهر البدايات)، والمقصود بهذا التعبير كما يتجلى في الآيات الكريمة ما يلي:

أولًا- افتتاح الخلق بحياطته بالطُّهر المصفي المركوز في اصطفاء الله تعالى الذي كان مفتتحه مع أول مخلوقٍ في الأرض وهو آدم عليه السلام.

ثانيًا- تمدد الطُهر وتجديده مع كل زاوية انحراف تضرب البشرية، وتجرفها بعيدًا عن أجواء الطهر من طريق تجديد الاصطفاء عند استفحال آثار الشرود عن منهج الله، وهو ما كان مع نوح وإبراهيم وآل عمران، وهؤلاء مجرد تمثيل فقط دالٌ على بقاء عناية الله تعالى بالخلق وتجديد ردهم إلى الطهر على امتداد التاريخ.

ثالثًا- استمرار الطهر، وانسراب مائه في الأجيال المتعاقبة من طريق النسل والذرية؛ ذلك أن البذرة الطاهرة التي صاحبت آدم عليه السلام، تسربت في أجيال البشرية من بعده، وهو ما يعني أن أصول الفطرة الطاهرة بموجب اصطفاء آدم باقيةٌ إن نظر إليها من زاوية البيولوجيا والأحياء، مما يعني أن استنبات الخير والطهر ممكن بسبب هذه البذرة القديمة المركوزة في أصل الخلق الإنساني المتناسل من آدم عليه السلام، وإن من طريق الوحي والدين الذي لم ينقطع من لدن نزول آدم عليه السلام إلى الأرض إلى محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين.

وهذان القولان مذكوران في مدونات كتب التفسير الجامعة يقول الماوردي في [النكت والعيون، للماوردي، تحقيق خضر محمد خضر، دار الصفوة ، القاهرة ، وزارة الأوقاف ، الكويت، ط١، سنة ١٤١٣هـ= ١٩٩٣م] (١/ ٣١١):

«٣٤-قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ ﴾. فيه قولان:

- أحدهما: «إنهم صاروا ذريةً بالتناصر لا بالنسب...»

- والثاني: «إنهم ذرية في التناسل والنسب؛ إذ جميعهم من ذرية آدم، ثم من ذرية نوح، ثم من ذرية إبراهيم».

إنَّ هذه الثلاثة أسس تقرر أنَّ الله سبحانه هيأ لهذه الإنسانية سبيل الاستقامة، ومحاصرة الانحراف بما أحاطه بها من أمرين هما:

أولًا- أمر الخِلقة التي أنشأها على أساس الطهر الذي أودعه خلق آدم ساعة اصطفاه، فالإنسانية-إذن- تملك سبيل الهداية بيولوجيًا.

ثانيًا- أمر المنهج الذي تجلى فيما أنزله الله تعالى من نُسخ الوحي المتعاقبة منعًا من شرود الإنسانية، وضياعها وتيهها في الدروب، وهو ما يعني أنَّ الإنسانية تملك سبيل الهداية معرفيًا وعمليًا.

ثم تتطور القضية في الكتاب العزيز -من خلال هذا النص- لتدل الأمة المسلمة على طريق عملية تستثمر فيه رصيد الطهر البيولوجي والمعرفي تتلخص في دلالة الأمة على مناهج الصالحين على امتداد التاريخ في استبقاء الطُهر، وتثميره في الوجود الإنساني، فتقف بنا الآيات أمام المنهجية العملية في استقبال المواليد، والتهدي لصلاحهم وخيريتهم في الحياة، وهو ما يمكن بيانه فيما يلي:

أولًا- صيانة الذرية بالنية المتوجهة إلى استنزال رعاية الله للقادم الجديد إلى الحياة من طريق نذره لله تعالى.

والنذر عبادة مبدؤها النية ومنتهاها العطاء والمنح، وعنايتها إيصال المنذور به إلى الله تعالى.

ثانيًا- صيانة الذرية بتحريرها من الارتباط بالدنيا الدنية، وإخلاصها بالعبادة لله تعالى، وإدارة أمرها على خدمة الله تعالى من طريق خدمة الدين، والحضارة الموصولة بالدين في كل تجلياتها الأخلاقية والعمرانية.

يقول الماوردي [النُكت والعيون ، (١/ ٣١١)]:

«﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾. آل عمران: ٣٥.

فيه ثلاثة أقاويل:

- أحدها: محررًا؛ أي مخلصًا للعبادة...

- والثاني: يعني خادمًا للبيعة؛ (أي بيت العبادة / بيت الله)...

- والثالث: يعني عتيقًا من الدنيا لطاعة الله».

ويتنامي مفهوم طهر البدايات ويتصاعد ليطارد مفهوم التفرقة، أو التمييز في أصرح صوره، وأكثرها صلابةً وظهورًا، تلك المتصلة بالتمييز أو التفرقة على أساس النوع، أو ما يعرف الآن بالـ (تمييز ضد المرأة على أساس بيولوجي)؛ ليقرر مبدأ طهر البدايات رفض التصور القرآني لهذا التمييز، وتجازوه لتطبيقاته الواقعية بإقرار خدمة المرأة -ممثلةً في مريم- لبيت الله على خلاف معهود التقاليد والأعراف والقوانين الوضعية المتوارثة.

والنص الكريم يقرر أن استقامة الحياة تبدأ من نقطة إسقاط التمييز بين المواليد، وهو التمييز الذي أنتج أزماتٍ عاصفة، وخلق جرائم مروعة.

النص الكريم يقرر ما يلي:

أولًا- استواء الولد والبنت في حركة الحياة، وخدمة الحضارة، فقد نذرت أم مريم مريم لخدمة بيت الله ، وأرسلتها إليه فكانت مثالًا للطهر والنقاء.

ثانيًا- استنزال صيانة الله للأولاد يلزمه طريق عملية، وخطة تعليمية وتربوية، ومحاضن صالحة قادرة تمتلك رصيدًا من الخبرة العملية، والسمعة الطيبة.

ثالثًا- ضرورة بصر الآباء بطبيعة أصل الخطر الذي يترصد الأبناء، وهو الأصل المركوز في (الشيطان) ووساوسه والحياطة منه من طريقين:

الأول- الطريق الإيمانية التي تفزع إلى الله بطلب حمايته، والاستعاذة به ليحمي من نزغ الشيطان.

الثاني- الطريق العملية التي تلجأ إلى:

أ-المؤسسة التربوية التي تأسست على التقوى، كما تجلى في بيت الله تعالى؛ بوصفه أجلُّ مؤسسات الرعاية والتزكية.

ب- الخبرة الإنسانية المدرَّبة والنقية ممثلةً في هيئة العلماء العُبّاد الذين يقومون على أمر إدارة المؤسسات ورعايتها.

يقول الماوردي (النكت والعيون)، (١/ ٣١٢):

«﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾. فيه تأويلان:

- أحدهما معناه: طعن الشيطان الذي يستهل به المولود صارخًا...

- والثاني: معناه من إغوائه لها»

وطلب الإعاذة – كما في الآية يتحرك على عمودين ظاهرين هما:

الأول- العلم بقدرة الله تعالى، والإيمان به قادرًا عاصمًا من الشيطان، الذي لا يُعجز الله تعالى.

الثاني- العلم بالشيطان، والإحاطة بخطره، وخطر نزغه، والعلم بكونه رجيمًا ملعونًا، عدوًا للبشرية.

وهذان الفرعان من العلم يمنحان المسلم المعاصر نوعًا من الوعي بأهمية المعرفة الإيجابية التي تقود إلى البناء والرشد، وأهمية ***المعرفة السلبية*** التي تمنع من التورط، والانحراف، أي أنَّ الطريق يلزمها معرفة الخير، للقيام به وإتيانه، ومعرفة الشر للتوقِّي منه، والابتعاد عنه.

إنَّ هذا النص العزيز يمثل الحلقة الأولى في طريق مواجهة الجريمة الاجتماعية بالعودة إلى الأصول الأولى المتعلقة باستقبال الوليد الجديد إلى الحياة، ومركزية الوعي لدى مؤسسة الوالدية عند هذا الاستقبال.

ومراجعة مدونات التفسير -على تنوع مناهجها ومدارسها- خطوةٌ مهمة جدًا؛ لفحص البدايات، والتهدي لتحقيقها في الواقع الاجتماعي والتربوي والتعليمي في ديار المسلمين.

وفيما يلي استخلاصٌ لعلامات طُهر البدايات من تفسيرين هما:

- تفسير الطبري (ت٣١٠هـ= ٩٢٢م)، وهو أجلُّ التفاسير بالمأثور.
- وتفسير القرطبي (ت ٦٧١هـ= ١٢٧٣م)، وهو أجلُّ التفاسير الفقهية.

١/ ١- خلاصات طُهر البدايات

من هذه الآيات عند الطبري (تفسير الطبري ٥/ ٣٢٨-٣٤٤):

أولًا- يرى الطبري أن الاصطفاء باقٍ في المؤمنين؛ من طريق الأصل الأول الواصل من آدم إلى ذريته، ومن طريق الاتباع.

ثانيًا- يرى الطبري أنَّ استبقاء الاصطفاء طريقه:

الموالاة في الدين، والمؤازرة في الإسلام، وتوحيد الله وطاعته.

ثالثًا- يرى الطبري أن النذر هو إخلاص الوليد لله تعالى.

رابعًا- يرى الطبري أنَّ الحرية طريقها حبس النفس على خدمة الله والعبادة والتفرغ لها، وتحويل عمل الدنيا إلى عبادة.

خامسًا- يكشف تفسير الطبري عن أهمية اختيار المؤسسات الخيِّرة للإعانة على التربية، والتعليم والاستقامة.

سادسًا- يكشف تفسير الطبري عن أهمية الدراسة والتعلم، والبدء بدراسة الوحي.

سابعًا- يكشف الطبري عن ضرورة اللجوء إلى الله لحماية الذرية، وهو طريق عدم تسلط الغواية على بني الإنسان.

وتأمُّل الآثار المروية في (جامع البيان) للطبري يكشف عن هذه العلامات التي لخصتها هنا.

١/ ٢- خلاصات بدايات الطُهر من هذه الآيات في تفسير القرطبي (٤/ ٦٢-٦٨):

أولًا- يقرر القرطبي أنَّ الاصطفاء متوجهٌ إلى دين الإسلام بدءًا بآدم عليه السلام الموصول إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

وأن بقاء الاصطفاء **في الذرية**، أو البشرية مرجعه إلى:

- التناصر في الدين، والاتباع لمنهجه.

- والتناسل الواصل من آدم إلى أبنائه ، وهم جميع البشرية.

ثانيا- يقرر القرطبي أن النذر يفهم منه حمل النفس على الالتزام بطريق العبادة والحق، وترك حظ النفس من المتعة بالولد إلى المتعة بالولد وهو على طريق الله تعالى، يقول القرطبي (٤/ ٦٦):

«إنَّ المرء إنما يريد ولده للأُنس به والاستنصار والتسلي، فطلبت هذه المرأة الولد أنسًا به وسكونًا إليه، فلما مَنَّ الله تعالى عليها به نذرت أن حظها من الأُنس به متروك فيه، وهو على خدمة الله تعالى موقوف، وهذا نذر الأحرار من الأبرار، وأرادت به محررًا من جهتي ، محررًا من رق الدنيا، وأشغالها»

ثالثًا- يلحُّ القرطبي على أن الحرية، وإخلاص الولد للدوران مع مراد الله في خلقه هما أساس الإصلاح والتربية القويمة.

رابعًا- يلح القرطبي على أنَّ العصمة والحماية من الغواية والإفساد أمرٌ ممكن، يقول (٤/ ٦٨):

«ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال المحسوس، وإغواؤه؛ فإنَّ ذلك ظنٌ فاسد، فكم تعرض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد، والإغواء، ومع ذلك فعصمهم الله مما يرومه (أي يطلبه) الشيطان... هذا مع أنَّ كل واحد من بني آدم قد وُكِّل به قرينه من الشياطين».

والطريق من الإغواء والإفساد تكمن أولى خطواته في طهر البدايات وهي مكفولة من الله تعالى لخلقه بالبيولوجيا من جانب، وبتأمين الإرشاد والهداية والدلالة على طريق الحق من جانبٍ آخر.

هذا مثالٌ أول عملي للوعي بالرعاية الوالدية قامت به امرأة عمران، أم مريم التي ورثت –فيما يبدو– ميراثًا كريمًا من الأخلاق التي انسربت إليها من بيتٍ مؤمن صالح كما جاء في هذا النص الكريم العزيز.

(٢)

يقول رب العزة سبحانه وتعالى:

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

[سورة القصص ٢٨/ ٢٥-٢٨]

هذا نصٌ عزيز يمثل من بعض الوجوه تكملةً لمرحلة طهر البدايات، يتمم مع سابقه الذي تفرغ لطهر البدايات مع استقبال الحياة؛ طهر البدايات من جهة استفتاح الحياة الجديدة مع تكوين الأسرة أو استقبال الحياة الزوجية.

والمثال هذه المرة لرجلٍ وعى أبعاد الرعاية الوالدية، ونهض بمسئولياتها نحو ابنتيه، وهما في مفتتح بداياتٍ حياةٍ جديدة هي حياة الزوجية، وتأسيس البيت والأسرة.

وتأسيس الأسرة مقصدٌ أعلى من مقاصد الكتاب العزيز يتحرك بوظائف بالغة الخطر والأثر في إقامة الحياة الإنسانية، وطلب استقامتها وثمرتها، بما تحققه من وظائف:

- السكن.
- والمودة.
- والرحمة.

وهي وظائف تروم تحقيق جودة الحياة في أبعادها البيولوجية والمادية، وتروم تحقيق السواء والسلام النفسيين والوجدانيين والعقليين معًا.

وهذا النص الكريم العزيز يتضمن حزمةً من علامات طهر البدايات الثانية التي تتعلق بطلب تأسيس الحياة الزوجية، ويمكن بيان هذه العلامات التي تروم نجاح هذه البدايات الجديدة المستساغة فيما يلي:

أولًا- خطر التأسيس للحياة يحمل على تجاوز الشكليات، وتجاوز المعوقات التي خلقتها التقاليد الاجتماعية، والتوجه إلى طلب ما به سعادة الأولاد، لقد توجه الرجل الصالح، شعيب إلى عرض ابنتيه على ما توافرت فيه الخصائص المطمئنة التي تشير إلى توافر فرص تحقيق حياةٍ آمنة وكريمة لابنتي الرجل الصالح شعيب.

وهذا العرض ترجمةٌ بالغة الوضوح للنهوض بمسئوليات الرعاية الوالدية من والد تجاه ولده.

استمع شعيب إلى ما توافر في موسى، وتحصل للبنتين من خلال الملاحظة والتجربة، مما استقر في الوصفين الجامعين اللذين جريا على لسان إحدي ابنتي شعيب وهما:

أ-القوة، التي تحرك بها وصفها له بالقوي.

ب-الأمانة، التي تحرك بها وصفها له بالأمين.

ثالثًا- تجلت مسئولية الرعاية الوالدية في هذا النموذج القرآني وقد رعت نوع الأبناء، وما يفرضه النوع من توفير نمطٍ خاص من الرعاية وحمايتها في المستقبل.

لقد وعى شعيب أن الطبيعة الأنثوية مسكونة بالـ (ضعف)، مسكونةٌ بما يوحي بالخوف، وهو ما انعكس في طلب ما به علاج الضعف وعلاج الخوف معًا، فكان التوجه إلى اختيار: القوي الأمين؛ القوي الذي يحمي تاريخ الأنوثة من الضعف، ويحميه من الشقاء، ويصونها من مزاحمة ما لا تقوى على مزاحمته، والأمين الذي يطمئن به تاريخ الأنوثة المحتاج بطبيعة التكوين البيولوجي والنفسي إلى الأُنس بالشريك، أو الأنس بالقيِّم الذي يرعى ويحمي ويأمن معه الجسم، وتأمن معه النفس، وتطمئن معه الروح، ويستقر معه العقل والضمير.

ثالثًا- تقدير الحاجات البيولوجية والنفسية للأبناء، والنكاح (أو الزواج) بما يحققه من وظائف هو أعلى الاستجابات العملية التطبيقية لضغوط الحاجات البيولوجية والنفسية معًا. بما هو استجابة لتلبية الرغبة، وإشباع حاجات الغريزة، وبما هو استجابة لتلبية الحاجة إلى الأمان والاستقرار والحماية المادية والمعنوية، وبما هو استجابة لتلبية الحاجة إلى تغذية الوجدان والعاطفة في أنبل تجلياتها، وترجماتها.

رابعًا- إظهار الحرص على البنات، وصيانتهنَّ والغيرة عليهن، تلك الغيرة التي تحمل على الصيانة أو الحماية أو التربية والصلاح، يقول الماوردي [النكت والعيون٣/ ٢٥٤]:

«٣٧- قوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾... روي أن موسى قال : فأيهما تريد أن تُنكحني؟ قال: التي دعتك، قال: إلا أن تكون تريد ما دخل في نفسك عليها، فقال: هي عندي كذلك، فزوَّجه، وكانت الصغيرة».

ويقول الماوردي أيضًا (٣/ ٢٥٤):

« ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ ... روي أن أباها لما قالت له ذلك دخلته الغيرة، فقال: فما علمك بقوته وأمانته؟ قالت: أما قوته فإنه كشف الصخرة التي على بئر آل فلان، ولايكشفها دون عشرة؛ وأما أمانته فإنه خلفني خلف ظهره حين مشى».

خامسًا- الحرص على تيسير زواج البنت، والتخفيف على الرجل، لأجل إعفافها، وسترها، وإسعادها، يقول شعيب لموسى ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾.

سادسًا- إعانة الوالد لبناته من طريق صحبة أزواجهنَّ، وإنزال هؤلاء الأزواج منازل الولد رعايةً وصحبة وتأمينًا، يقول شعيب لموسى ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ويقول كذلك ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

سابعًا- الحرص على بيان أن الزواج طريقٌ للعفة، وهو طريقٌ يستحق أن يبذل فيه المرء جهده، يقول الحديث الصحيح [صحيح البخاري ٥/ ٢١٣] « إنَّ مُوسى أجَّرَ نفسَهُ بعفَّة فَرجِه وطعمةِ بطنه».

٢/ ١- خلاصة طُهر البدايات من هذه الآيات:

عند الطبري في [تفسير الطبري ١٨/ ٢١٨-٢٣٤]:

أولًا- يرى الطبري أنَّ الأمان مسألةٌ جوهرية في تحقيق البدايات الجديدة التي تروم وتطلب جودة الحياة، والتفرُّغ للنهوض بما يرقى بهذه الحياة.

ثانيًا- يرى الطبري أنَّ الحياة الزوجية، وتأمين مستقبل البنت مرهونٌ باختيار زوج قوي لها، يقوي على إصلاح الحياة، وصلاحها، جامعٌ لمؤهلات تنميَّة الحياة، وحفظها.

ثالثًا- يرى الطبري أن صمام أمان البنت في البدايات الجديدة في حياتها الحقيقية بعد الزواج مرهونٌ بأمانة رجلها، وامتلاء عينيه، وعفته، وصيانة نفسه من طريق زوجته، لا من طريق غيرها.

رابعًا- يقرر الطبري من خلال مرويات تفسيره لهذه الآيات أنَّ الوفاء العملي ركنٌ أصيل في استقرار طهر البدايات الذي يطيف بحياة الأسرة.

خامسًا- يشير الطبري إلى أن البر، والإحسان أساس ركن في استدامة حياة الأسرة، وتوسعة العائلة، وهو ما قررته الآثار في وفاء موسى لشعيب والد زوجته بالعمل لديه عشر سنين.

سادسًا- قرر الطبري أنَّ واحدًا من أصول التربية والرعاية الوالدية النابعة من مسئوليات الأب ماثلٌ في حزمةٍ من الممارسات العملية التربوية هي:

أ-إظهار الغَيرة على البنات.

ب-الحرص على التواصل مع الأولاد.

ج-الحرص على تنمية الإدراك لدى الأولاد.

د-تربية الأولاد على دقة الملاحظة، وحياطة الرأي الصادر عما في الحياطة بالدليل، وهو ما يمنع من التورط في الانخداع أو الاغترار بظواهر الأشياء والذهول عن حقيقة الحياة والإعانة على فهم حقيقة الحياة.

٢/ ٢-خلاصة طُهر البدايات من هذه الآيات عند القرطبي في [تفسير القرطبي ١٣/ ٢٧٠-٢٨٠]:

أولًا- قرر القرطبي أن شعيب أعلن لموسى نجاته من حكم الاستبداد، في إشارة لا تخفى عن المتأمل- إلى أهمية الأمان لتأسيس الحياة الإيجابية التي تروم النهوض بمسئوليات الحياة.

ثانيًا- قرر القرطبي أن ثمة مصلحةٍ في الخلطة بين الناس، وأنها من ضرورات الخلق.

ثالثًا- قرر القرطبي أن فعل السلف مستقرٌ على طلب الرجل الصالح من جانب أهل الزوجة، يقول(١٣/ ٢٧١): «إن عرض الولي بنته على الرجل الصالح، ... سنةٌ قائمة؛ .. فمن الحسن عرض الرجل وليته... على الرجل الصالح اقتداءً بالسلف الصالح».

وهذه استراتيجيةٌ إيجابية تكشف عن نمطٍ من الرعاية الوالدية التي يلزم نشرها بين الآباء طلبًا لسعادة البنات في مستقبل بناء بيوتهنَّ.

خامسًا- قرر القرطبي أنَّ الشرع متوجهٌ إلى التوسع في مفهوم المهر، وما به قيام الزواج حتى دخلت الإجارة في جملة مفهوم المهر الموسع، يقول (١٣/ ٢٧٢):

« في هذه الآية خصائص في النكاح بين منها ... جعل المهر إجارة، ودخل ولم يفقد شيئا». ويقول (١٣/ ٢٧٣):

«وأما النكاح بالإجارة فظاهرٌ من الآية، وهو أمر قد قرره شرعنا، وجرى في حديث الذي لم يكن عنده شيءٌ من القرآن».

سادسًا- قرر القرطبي أن طلب الأمان من الوالد لبناته تقتضي اختيار زوجٍ قادر على العمل، والكسب وتنمية الحياة، والثروة.

سابعًا- قرر القرطبي أن الكفاءة ركنٌ في الزواج، ثم توسَّع فيما به قيام الكفاءة، مركزًا على الدين، فقد كان موسى طريدًا فقيرًا وحيدًا خائفًا؛ فزوجه شعيب لما تحقق من دينه.

ثامنًا- قرر القرطبي أن الرعاية الوالدية تفرض رعاية كرامة البنت في مجتمعها الجديد، بإشهار الزواج والإشهاد عليه.

هذا مثالٌ ثانٍ عملي على الوعي بالرعاية الوالدية قام به في هذه الحالة رجلٌ يرعى ابنتيه، ويجتهد في تأمين مستقبلهما، وتأمين تأسيس حياتهما الجديدة التي تبدأ في صورةٍ جديدة تمامًا هي صورة البيت، وإنشاء الأسرة.

نحن أمام نمطٍ من الرعاية الوالدية تجلت في الحرص على حزمةٍ من الأصول والمبادئ التي تتلخص فيما يلي:

أولًا- الغيرة على البنات لأجل صيانتهنَّ، وترشيد سلوكهن وتزكية نفوسهن.

ثانيًا- طلب عفة البنات وتجنيبهن صراعات النفس التي تتولد من ضغوط الغرائز، بالاستجابة الشرعية والواقعية بتزويجهنَّ.

ثالثًا- التأنِّي في اختيار الزوج، وفحص مؤهلاته، واختيار قدراته التي بها نجاح مؤسسة الزواج، تلك المؤهلات التي تنعكس في:

- الحرص على طلب الرجل القوي.

- الحرص على طلب الرجل الأمين.
- الحرص على طلب الرجل الدَّيِّن، التقي صاحب الأخلاق.
- الحرص على الرجل الطموح القادر على تنمية الحياة.

إنَّ هذين المثالين ربما فتحا الباب أمام الخطوة الأولى التي تتمثل في أهمية طهر البدايات، إن على مستوى بدايات البيولوجيا والميلاد، وإن على مستوى بدايات الحياة الجديدة المتمثلة في الزواج وبناء الأسرة في مواجهة مخاطر الجرائم الاجتماعية.

(ثانيًا)
طُهر الإقامات

تتلو مرحلة البدايات مرحلة الإقامات، والإقامة: اللبث، والعكوف على الشيء، والدوام عليه، والصبر عليه؛ كما تقرر في المعجمات العربية.

(١)

يقول تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾. [سورة إبراهيم عليه السلام ١٤/ ٣٧-٣٨].

في هذا النص العزيز من الكتاب الكريم ما يفصح عن إرادة معنى الإقامة بدليل قوله تعالى ﴿أَسۡكَنتُ﴾، والسكن استقرار، وإقامة.

والنص الكريم متوجه إلى رعاية الذرية وطلب أمر إقامتها، وسكناها، والتأتي له بدليل إيقاع الفعل ﴿أَسۡكَنتُ﴾ على الاسم ﴿ذُرِّيَّتِي﴾.

وهذا النص حاسمٌ في نهوض إبراهيم عليه السلام بما هو والد، وزوج، ورب أسرة بالرعاية الوالدية، تخطيطًا، وتنفيذًا في مستوى توفير الإقامة للولد والأم، أي للأسرة.

النص العزيز يتحرك بعلاماتٍ واضحة للرعاية الوالدية يمكن رصدها فيما يلي:

أولًا- ظهور الوعي بأن مسئولية الرعاية الوالدية تتجلى في توفير السكن للولد، وللأسرة، وطلب ذلك من الله تعالى والتوجه إليه به، والدعاء له بأن يرضاه، وهو ما يظهر في قوله تعالى ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾

والإقرار بالإسكان هو قيام *بفريضة* تحقيق الاستقرار للأسرة والولد، الواجبة على الراعي وهو هنا الوالد والزوج.

وهذا الجزء من الآية إقرارٌ بفريضة القيام بوظيفة توفير المسكن في تجلياته المادية الواضحة المتمثلة في:

أ- اختيار البيئة، أو المكان.

ب- اختيار المسكن، أو المنزل.

ج- تعيين القائم بالراعية المباشرة ، ممثلًا في تفويض الأم بما هي شريك في الرعاية

د- الإشراف على الرعاية المباشرة، من حانب المسئول الأول المباشر عن *الرعاية الوالدية* ممثلًا في الأب.

ثانيًا- الإحسان في اختيار البيئة والمكان والمنزل، وتحرِّي شروط طُهر الإقامات، الدائرة في فلك:

أ- صيانة الدين.

ب- صيانة الأخلاق، والقيم.

ج- ضمان شروط الوجود المادي، أو ضمان شروط استمرار الحياة، واستقرارها، وتنميتها بوصف هذا أحد مقاصد الدين وهو العمران، بوصفه مقصد كليًّا أعلى من مقاصد الدين.

وهذا الإحسان تجلى في تعيين المكان كما جاءت به الآية الكريمة عندما قال الكتاب العزيز ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾

وتحليل دلالة المحرَّم يكشف عن تحري توافر شروط الطهارة، والارتقاء السلوكي والأخلاقي.

والحقيقة أنَّ تحليل التعليل في الآية نفسها يكشف عن الأسباب الكامنة وراء هذا الاختيار للمكان، والتي حكمت قرار الأب الوالد، تقول الآية الكريمة ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ويدعم ذلك تفسير الماوردي في [النكت والعيون ٢/ ٣٩٥] الذي يقول فيه: «﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يحتمل وجهين:

- أحدهما: أن يكون سأل الله تعالى *بذلك* أن يهديهم إلى إقامة الصلاة [باختيار مكانٍ يعين على ذلك].

- والثاني: أن يكون ذكر سبب تركهم فيه أن يقيموا الصلاة، وهو ما لا يتم إلا بالسَّكن قرب بيت الله يعمر بالصلاة، والأخلاق والسلوك القويم».

ثالثًا- الإحسان في اختيار البيئة والمكان والمنزل، ليكون مكان إقامةٍ واستقرار يحوز شروط جودة الحياة من المنظور الاقتصادي والمالي، وهو ما تجلي في قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾

والمنازل تحوز سبل الاستقرار والبقاء فيها وعمرانها من المنظور الاقتصادي من طرقٍ تنموية متعددة؛ منها الزراعة والصناعة، وهو ما ليس متوافرًا هنا، ومنها التجارة والتبادل التجاري، وربما السياحة -وفي القلب منها السياحة الدينية- ومن المهم جدًا ظهور ارتباط هذا الاختيار بعلَّة توفير أجواء الإقبال على الله والطاعة له، وهو الأمر الذي نطق به ختام الآية الكريمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ يقول الماوردي في [النكت والعيون ٢/ ٣٦٩]:

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ أي: لكي يشكروك».

رابعًا- ظهور الوعي بأهمية إعلان شرط القبول النفسي للمنزل والمكان والسكن ورصد ما يعين على هذا القبول النفسي والعاطفي لدعم الإقامة وتعزيز سياسات الحياة والتنمية في محل الإقامة.

يقول الماوردي في [النكت والعيون ٢/ ٣٩٦]:

«وفي مسألة إبراهيم عليه السلام أن يجعل الله أفئدة من الناس تهوي إليهم قولان:

- أحدهما- ليهووا السكنى بمكة فيصير بلدًا محرما...

- والثاني- لينزعوا إلى مكة فيحُجُّوا»

ويضاف إلى ذلك دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الذي يدعم سياسات القبول العاطفي والوجداني للإقامة في هذا المكان المختار، وهو ما يدعمه المادوردي في [النكت والعيون ٢/ ٣٩٦]:

«﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فيه وجهان:

- أحدهما: يريد من الثمرات القلوب بأن تحببهم إلى قلوب الناس فيزوروهم.

- الثاني: وهو الظاهر من ثمرات النخيل والأشجار... وما يجلب إليهم من الأمصار والبلدان المختلفة».

وهذان الرأيان عاملان مشهوران يحملان على قبول الإقامة في الأماكن التي تحوز هذا النوع من الامتيازات المادية (الثمرات المادية) والامتيازات الأدبية المعنوية (الثمرات القلبية).

خامسًا- الإحسان في اختيار المنزل والمسكن والمكان الحائز لحزمة من الامتيازات على مستوياتٍ متنوعة تتمثل فيما يلي:

أ-المستوى الجغرافي والاستراتيجي، على طريق التجارة من جانب، والحائز للبيت الحرام.

ب-المستوى الديموغرافي/ السكاني المتنوع الذي يضمن حدًا أدني من التعاون وتبادل الخبرات والتجارب والثقافات التي تعين على الإعمار، وتدعم النشاطات التنموية في مستوياتها المختلفة.

وهو ما فسره الماوردي في [النكت والعيون ٢/ ٢٩٦] عندما قال:

« كأنه قال: فاجعل وفودًا من الأمم تهوي إليهم» في أحد وجوه التفسير المقبولة لغويًا لقوله تعالى﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾».

وفكرة اختيار محل الإقامة متنوع السكان ربما يشير إلى نوع من تقارب الطبقات وعدم تنازعها، وعدم وجود فرصٍ لارتفاع إحدى الطبقات

على غيرها بسبب من امتيازٍ خاص، وهو نوع حصار لمقدمات الاستبداد، أو التعالي اللذين يمهدان الطريق للتمييز العنصري الممقوت البغيض، بضمان التوازن في قوى المجتمع، وتساوي طبقات تشكيلاته السكانية، وحاجة بعضهم إلى بعض، بما هو ناتج هذا التنوع الثقافي.

وهذا مثالٌ ظاهر لنهوض الأب الوالد بمسئوليات الرعاية الوالدية في مستوى الإقامات، على قواعد رصد حزمةٍ من الشروط والمبادئ الواعية الأصيلة، ثم على مستوى التخطيط وإدارة الاختيار، ثم على مستوى التنفيذ وإعلان القوانين الضامنة لنجاح الخطة عند تنفيذها، وإعلام المنفِّذين الذين فُوض إليهم الأمر بالشروط والخطط والقواعد الحاكمة الضامنة للإقامة المستقرة بربطها بالأهداف.

١/ ١- علامات طُهر الإقامات

عند الطبري في تفسير [تفسير الكبري ٨/ ٥٥٧-٥٦١]:

أولًا- قرر الطبري أنَّ الرعاية الوالدية من إبراهيم توجهت أولًا إلى توفير المسكن لولده وزوجه، أي أسرته جميعًا، يقول (٨/ ٥٥٧):

« أخرج ابن جرير ... في قوله ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾. قال: أسكن إسماعيل وأمه مكة»

ثانيًا- قرر الطبري أن الرعاية الوالدية في هذا السياق تقوم على بذل الدعاء لله تعالى بتوفير إقامةٍ طيبة للأسرة والولد، وهو الأمر المستفاد من دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

ثالثًا- قرر الطبري أنَّ الرعاية الوالدية ترعى اختيار مكانٍ ينزل من النفس منزلًا مقبولًا، وهو تفسير الدعاء، قال الطبري (٨/ ٥٥٩):

«تهوي إليهم»، قال: تنزع إليهم»

أو» البيت تهوي إليه قلوبهم تأتونه أو أهواهم إلى مكة أن «يحجُّوا».

ومسألة الاحتياط -في اختيار المسكن- للقبول النفسي والعاطفي أمرٌ مهم جدًا للاستقرار والإعمار، والقيام بمقاصد الدين.

ومما قرر الطبري (٨/ ٥٦٠) : «إنه حيث يهوي القلب يذهب الجَسد».

رابعًا- قرر الطبري أن توفير المسكن والمنزل في بيئةٍ مستقرة اقتصاديًا إحدى مسئوليات الرعاية الوالدية، وهو ما ظهر من دعاء الوالد/ إبراهيم عليه السلام ﴿فاجعَلْ أفئدةً من الناسِ تَهوي إليهم وارزُقهُم من الثمَراتِ لعلَّهم يشكرون﴾. والدعاء بالرزقَ مسألةٌ واضحةٌ تتمثَّل فيما تجلبه جماعات الوافدين على مكة المستقر ومحل الإقامة المختار من اقتصاديات الحَج، وتتمثل في المعنى المباشر المتعلق بما يرد إلى مكة من البضائع والطعام، حتى ورد في التفسير أنَّ الله هيَّأ الطائف لتكون موردًا لطعام مكة، ومعيشتها؛ بما توافر فيها من زروعٍ وثمار.

والحقيقة أنَّ هذا الاختيار ناتج وعيٍ تحليلي بالجغرافية الاقتصادية التي توافرت لمكة المكرمة ، فضلًا عن أنه اختيار وحي أمر به الله تعالى.

خامسًا- قرر الطبري – وإن بصورةٍ غير مباشرة – إلى توجه الرعاية الوالدية من الأب الوالد إبرهيم عليه السلام بتعيين المنزل القريب من بيت الله الحرام، وهو ما صرَّح به التفسير من إسكانه أسرته مكة المكرمة.

وتعيين المسكن بما جاء في قرار إبرهيم ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ أمر مقصودٌ يعين على الاستقرار والاستقامة في الإقامة، لأنَّ القرب من المسجد يفرض نمطًا من السلوك والتواصل الإيجابيين اللذينن يستصحبان مقررات الدين في المعاملة والخلطة مع الناس.

ومسألة سلطة المكان وأثرها في استقامة السلوك، والضبط المجتمعي مسألةٌ مستفيضة مستقرة ، يقول الطبري (٨/ ٥٦٠):

«وإنه (أي البيت المحرم) بيتٌ طهَّره الله من السوء، وجعله قِبلةً، وجعله حرمه، ***اختاره نبي الله إبراهيم لولده.***»

وهذا النص بقيام إبراهيم عليه السلام بمسئولية الرعاية الوالدية تمثل في اختياره المحلَّ الحرام لإقامة ولده وإقامة أسرته، وهو نوع وعي أصيلٍ جدًا بأثر الجغرافيا في السلوك الإنساني، أو ما يعرف باسم شخصية المكان.

٢/ ٢- علامات طُهر الإقامات

عند القرطبي في تفسيره [تفسير القرطبي ٩/ ٣٦٨-٣٧٤]:

أولًا- أورد القرطبي أنَّ إبراهيم جاء بهاجر أم إسماعيل عليها السلام، « وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحةٍ فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك «. وهذا أول عمل من أعمال الرعاية الوالدية الذي توجه إلى توفير السكن للولد وأمه وفق أمر الله تعالى.

ثانيًا- أورد القرطبي أنَّ الوالد الزوج ترك أسرته «ووضع عندهما جرابًا من تمر وسقاءً فيه ماء».

وهذا ثاني عمل من أعمال الرعاية الوالدية توجه إلى توفير ما به مادة الإقامة والحياة؛ وهو الزاد من طعامٍ وماء.

ولا ننسى أننا أمام مفسِّر فقيه معني بالأحكام فيما يستنبطه من المعاني والدلالات والتفاسير، وهو الأمر الذي يجعل من قيام الوالد بمسئوليات الرعاية الوالدية كما تترجم عنها هذه الآيات فروضًا واجبة.

ثالثًا- أورد القرطبي أنَّ من مسئوليات الرعاية الوالدية السعي لتوفير ما يحفظ حياة الولد بعد إذ توفر المسكن وتوفرت الإقامة، وهو ما نراه من سرد سعي أم إسماعيل للحصول على ما به إنقاذ حياة وليدها، حتى قال» ثم سَعت سعي الإنسان المجهود».

ويتجلى رضا الله عن هذا السعي المجهود في تفضله بما كان من رزقه الوفير لها ولابنها وللناس من بعدهما؛ أي أنَّ الله سبحانه يرق ويرحم الوالدية المرهقة التي تسعى لأجل حياة أولادها.

وهذه منزلةٌ من الرضا العملي الذي ينبغي أن يطمئن إليه كل من حمَّله الله مسئولية الرعاية الوالدية أبًا كان أو أمًا، أو ما شئت ممن لزمه القيام بها.

رابعًا- قرر القرطبي أنَّ من مسئوليات الرعاية الوالدية الاحتياط في رعاية الولد والأسرة، يقول (٩/ ٣٧٠):

« لا يجوز لأحدٍ أن يتعلق بهذا الذي كان من إبراهيم عليه السلام في طرح ولده وعياله بأرضٍ مضيعة اتكالًا على العزيز الرحيم، واقتداءً بفعل إبراهيم الخليل؛ فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله»

خامسًا- قرر القرطبي أن مسئولية الرعاية الوالدية يلزم منها ما يلي:

أ-قيام الوالد « بتأسيس الحال، وتمهيد المقام» عن طريق التخطيط.

ب-ضرورة قيام الوالد باختيار محلِّ الإقامة الذي تتوافر فيه المادة اللازمة لاستمرار الحياة من وجود مصدر الماء والطعام المتجدد، يقول القرطبي (٩/ ٣٧٠):

«لما أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخطَّ الموضع للبيت المكرم، والبلد المحرم، أرسل الملك ***فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء***».

سادسًا- قرر القرطبي أنَّ الرعاية الوالدية تتسع لتشمل الولد وأمه، وهو ما يظهر من تفسيره ﴿ذُرِّيَّتِي﴾ (٩/ ٣٧١):

«يعني إسماعيل وأمَّه».

سابعًا- قرر أن الرعاية الوالدية يلزمها التأني عند اختيار محل الإقامات والانطلاق من قاعدة ما به حفظ دين الولد، وهو ما قرره تفسير قوله تعالى ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾. بما يتضمنه من معنى الجلال، وعدم الاستخفاف بحقه.

ويقول إنَّ قول الله ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ جملة (٩/ ٣٧١): «متعلقة بأسكنتُ»، وهو ما يعني ما يشبه التعليل لاتخاذ قرار الإسكان عند البيت الحرام.

ثامنًا- قرر القرطبي أنَّ تأمين محل السكن شرطٌ عند الاختيار، وأن ذلك فرع من مسئوليات الرعاية الوالدية، يقول (٩/ ٣٧١):

«إنَّ إبراهيم « رغب إلى الله أن *يأتمنهم*، وأن يوفقهم لإقامة الصلاة». والائتمان فرعٌ من الشكر الواجب عند توفير الأمان من باب أولى.

تاسعًا- قرر القرطبي أنَّ من مسئوليات الرعاية الوالدية الاجتهاد في اختيار محل الإقامات المقبول نفسيًا والذي يتوافر فيه ما يحمل القلوب على القبول بها، وهو ما يظهر من تعليقه على دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

عاشرًا- قرر القرطبي أنَّ من مسئوليات الرعاية الوالدية في بند توفير طُهر الإقامات اختيار محال الإقامات التي تضمن للولد النشوء في ظل مكانةٍ اجتماعية مقدَّرة، يقول (٩/ ٣٧٣):

«قرأ مجاهد تهوي إليهم ؛ أي :... تجلُّهم».

حادي عشر- قرر القرطبي أنَّ من مسئوليات الرعاية الوالدية اختيار محال الإقامات وقد توافرت فيها سبل العيش المادي، وسبل الرزق الحلال الميسور، يقول (٩/ ٣٧٣):

«فاستجاب الله دعاءه، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار، وبما يجلب لهم من الأمصار».

ثاني عشر- قرر القرطبي أنَّ مسئوليات الرعاية الوالدية اختيار محال الإقامات على شروط ترعى طبيعة الجيران، وقوانين الجوار والتعامل ووضوح الحقوق والوجابات؛ منعًا من هدر الوقت والجهد في النزاع قدر الإمكان، يقول «إنَّ جماعة من (جرهم) مرت بمكة فقالوا لأم إسماعيل «أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء». وهي تقصد عدم منعهم، ولكن جعلت إدارة الماء لها ولولدها.

وهذا المثال الذي يتضح من هذا النص الكريم يكشف بوضوح عن اجتهاد الوالد (إبراهيم) والوالدة (هاجر) في القيام بمسئوليات الرعاية الوالدية مجتمعين، ومنفردين.

وهو مثال يوقفنا أمام تجليات الرعاية الوالدية في مستوى «الإقامة» وما يلزم الوفاء به لتحقيق معايير الطُهر للأبناء فيها، ليكونوا صالحين، أبعد شيء عن الجريمة الاجتماعية، وهو ما تجلَّى في عمليات:

أ-التخطيط والتمهيد.

ب-الإعداد والتنفيذ.

ج-الإشراف والمتابعة.

د-التطوير والتحديث.

هـ-مواجهة المستجدات بما يضمن حقوق الأجيال الوارثة المادية والأدبية.

(٢)

يقول تعالى ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩ ﴾. [سورة آل عمران ٣/ ٣٧-٣٩].

هذا النص العزيز مكتنزٌ بعددٍ من العلاقات المعبرة عن مسئوليات الرعاية الوالدية التي سوف نستثمرها في سياقين هما:

أ-سياق طُهر الإقامات.

ب-سياق طُهر الكفالات، وهو السياق التالي لما نحن بصدده هنا الآن، ولذلك سنتجاوز بصورةٍ مؤقتة الوقوف أمام قوله تعالى:﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ إلى المبحث الثالث.

وفيما يلي رصدٌ لما يظهر من علاقات طُهر الإقامات التي نهضت بها أم مريم ابتداءً، ثم رعاها وتمم رعاياتها زكريا؛ أي أننا أمام نموذجين نهضا بمسئوليات الرعاية الوالدية هما:

أ-الأم الوالدة، أم مريم؛ ابنة عمران.

ب-الراعي أو الوالد البديل، زكريا النبي، عليه السلام وزوج خالتها، وهو ما يعني أنَّ الكتاب العزيز يوسع مفهوم الوالدية لتشمل -بجانب الوالد والوالدة الحقيقيين أو البيولوجيين- أنواعًا أخرى من الوالدين برابطة القرابة أو المحارم.

وبيان علاقات الرعاية الوالدية التي تحيط بمبدأ طُهر الإقامات كما يلي:

أولًا-ظهور العناية بارتباط الإقامة بالبناء البدني والنفسي للولد من قِبل الوالد، وهو ما عبَّر عنه التعبير القرآني ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾، يقول المارودي [النكت والعيون ١/ ٣١٢]:

« ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ يعني : أنشأها إنشاءً في غذائها، وحُسن تربيتها».

والحقيقة أنَّ توجه العناية إلى رعاية البدن والنفس تبدو قضيةً جليلة جدًا عند تأمُّل فعل الإنشاء المنقول من حقل العمارة والخلق معًا.

إنَّ تأمل سياقات ذكر هذا الفعل في الكتاب العزيز يكشف عن استعمالٍ في الحقول التالية:

أ-ابتداء خلق الله الإنسان، وتسويته في أكمل صورة.

ب-خلق ما في الوجود المادي، من سحاب، والشجر وغيرهما.

ج-التربية والنمو.

ويرتبط فعل الإنبات في الذكر الحكيم بالدلالات التالية:

أ-الإنماء.

ب-الخلق الإنساني.

وعليه فإنَّ الكفالة قيامٌ على الحقيقة بما يحقق للمكفول تمام خلقه على الاستواء المراد، وبما يرعى إنماءه، وبما يحقق تزكيته، وينتج البهجة المأمولة من هذا الإنبات.

ثانيًا- قيام المسئولية الوالدية بواجب تعهُّد الولد، ومتابعته، وتفقد أحواله، وملاحظة ما حوله مما يجدُّ من ظواهر وعلاماتٍ مادية وأولها تفقد حال مطعمه ومشربه في مكان الإقامة.

وتأمل البنية اللغوية الكامنة في استعمال ﴿كُلَّمَا﴾ الدالة على التكرار، والكثرة يكشف عن استقرار مسئولية الرعاية الوالدية حول القيام بهذا الواجب الذي يفرضه مفهوم ***الكفالة.***

الآيات الكريمة تشير إلى:

أ-تكرار دخول الوالد/ القائم بالرعاية على الولد محل بذل الكفالة والرعاية.

ب-طُهر ارتباط ***طُهر الكفالات*** بركن طهر الإقامات الذي يظهر من ذكر ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ بوصفه «أكرم موضعٍ في المجلس» الذي هو أكرم مجلس في الحياة بوصفه بيت الرب سبحانه.

ومن الظاهر أن تكرار الدخول إنما كان للقيام بمسئوليات الرعاية الوالدية المختصة بركن الكفالة بدليل ما يظهر في جزء الجواب وهو ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾؛ أي أن تكرار دخول الوالد متوجه إلى تفقد حال الولد من جهة ما يقيم بدنه من طعام وشراب، بعد الاطمئنان لتحقق الرعاية ***بركن الإقامة*** الماثل في مكوث الولدً في ***المحراب*** الذي يظهر في الآية محلًا مستقرًا للإقامة.

ثالثًا- قيام الرعاية الوالدية بمسئولية التواصل بوصفه مطلبًا من ***مطالب الإقامة*** الإيجابية غير المنعزلة.

والتواصل -كما يظهر من نص الآيات الكريمة- يهدف إلى تعزيز الوظائف التالية:

أ- تعزيز وظيفة الاكتساب اللغوي، وتحقيق مستوىً متقنٍ في نفس المكفول؛ ذلك أن تحسين المهارات اللغوية والتواصلية إحدى أهم المهارات اللازمة في الحياة بشكلٍ عام، وفي حياة الرعاية بشكلٍ خاص.

ب- تعزيز وظيفة التعلم وترسيخ نوعٍ من المعرفة بمصادر ما حولنا في الوجود.

ج- تعزيز الإيمان بالله تعالى بوصفه خالق كل شيء، وبوصفه الرازق العليم.

وفي هذا السياق يقول الماوردي في [النكت والعيون ١/ ٣١٢]:

«﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾.

فيه قولان:

- أحدهما: أن الله تعالى يأتيها بالرزق.

- الثاني: أنَّ بعض الصالحين من عباده سخره الله تعالى لطفًا منه بها حتى يأتيها رزقها».

وتحليل هذا الجزء من الآيات يكشف عن التواصل الإيجابي من خلال ما يلي:

أ-إقامة حوارٍ بين الكافل والمكفول، بطرح السؤالات وانتظار الإجابات.

ب-استثمار الحوار، المكون من السؤال والجواب سبيلًا أو استراتيجيةً تعليمية لتثبيت نمطٍ معين من المعلومات يحرص الكافل على استقرارها في نفس المكفول،

ج- استثمار الحوار المكون من السؤال والجواب سبيلًا لتعزيز الإيمان بأنَّ الله سبحانه وتعالى هو الرزاق المتفضل.

رابعًا- ظهور دخول *توفير فرص* التعليم ضمن مفهوم طُهر الإقامات وهو بعض ما يكشف عنه تحليل سؤال الوالد الولد في الآية، واعتبار توفير شروط التعليم من مبادئ طُهر الإقامات.

ولعل تذييل الآية الكريمة التي تضمنت السؤال والجواب وهو : (إنَّ اللهَ يرزقُ مَن يشاءُ بغيرِ حِسابٍ) كاشفٌ عن هذا.

وقد نبه الماوردي إلى أن ثمَّة احتمالين وراء هذا التذييل، هما:

أ- أنه حكاية قول مريم عليها السلام التي فهمت مغزى سؤال كافلها زكريا، فأرادت أن تنهض بما يطمئنه على فهمها، وما تعلمته وسكن قلبها، وشيد صرح إيمانها.

ب-أنَّ قول الله تعالي بعد أن تمَّ جواب مريم عن سؤال زكريا؛ في إشارة إلى أن مدار التعليم هو ربط المتعلمين فيما يتعلمونه بالمصدر الأعلى الذي إليه علم كل شيء، وخلق كل شيء.

خامسًا- الحرص على التمسك بمبدأ ***القدوة*** من جانب القائم بالرعاية الوالدية، منعًا من وقوع الولد محل استنزال الرعاية في التناقض المربك بين ما يُؤمر به، وينشأ عليه، وبين ما يراه ويلمسه من سلوك القائم بالرعاية، المتعهد بالتربية.

ويظهر هذا المبدأ المستخلص من تأمل ركن طُهر الإقامات من قوله تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ ـ

الآية تقرر أن زكريا / الكافل يقيم في المحراب، وهو المكان نفسه الذي اختاره للمكفول محلًا للإقامة.

وزكريا الكافل يعلم أنَّ الله هو الرازق فيتوجه إليه بما يريده، ويرجوه ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾.

وزكريا/ الكافل يؤمن بقدرة الله سبحانه وحده على الاستجابة لطلبه ورجائه وتلبيته له، فقال (ربِّ هَب لي من لَدُنكَ ذُرِّيةً طيبة). ثم يقول ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾.

يقوم زكريا في المحراب، ويرعى مريم التي تقيم في المحراب، ويدعو زكريا ربَّه طالبًا الرزق في كل اتجاه إيمانًا به، وتوكُلًا عليه، وتجيب مريم بما يكشف عن إيمانها بالله الرازق الذي يرزق ويتحنن.

وهذا التناظر مبدأٌ مهم جدًا مثمر في التربية؛ لأنه يثبِّت نموذج القدوة في نفوس المقتدين به، ويمنع مادة التعارض والتناقض التي إن ظهرت جرت مفاسد على النموذج المعرفي التربوي الذي يتعرض له الولد في مسيرة نموه وتربيته.

سادسًا- ظهور الوعي بخصوصية ما يلزم توفيره للولد الذكر، وما يلزم توفيره للبنت من قوانين الإقامة؛ نظرًا للفارق ما بين الولد والبنت بيولوجيًا وشرعيًا.

لقد أقام إبراهيم ولده عند البيت المحرَّم، وأقامت امرأة عمران مريم في المحراب وهو أعون على التستر؛ نظرًا إلى أُنثويتها.

إن هذا المثال الثاني يتضافر مع المثال السابق في ظهور رعاية مبدأ طهر الإقامات، وأهميته في التنشئة التربوية والاجتماعية للنشء، وأثر ذلك في حصار الجريمة الاجتماعية بصورةٍ واضحة جدًا.

٢/ ١- علامات طُهر الإقامات

عند الطبري في تفسير [٥/ ٣٤٤-٣٨١]:

أولًا- قرر الطبري أنَّ الرعاية الوالدية توجهت لتوفي طهر الإقامات للبنت، كما وفرتها للولد، والأسرة جميعًا.

ثانيًا- قرر الطبري أنَّ الرعاية الوالدية ترى أن طهر الإقامات يتصل اتصالًا مباشرًا ***بتوفير الرزق***، يقول الطبري (١/ ٥٤٥):

«أنبتها ربُّها في غذائه ورزقه نباتًا حَسنًا، حتى تمت فكملت امرأةً بالغةً تامة».

ثالثًا- قرر الطبري ظهور وعي أم مريم بمسئوليات الرعاية الوالدية المتعلقة بركن طهر الإقامات عندما توجهت بابنتها إلى بيت الرب ليكون محلًا مختارًا للإقامة والتربية، قول الطبري (٥/ ٥٤٩):

«فانطلقت بها أمها – يعني أم مريم بمريم- حين ولدتها ***إلى المحراب***».

ويقول (٥/ ٣٥٠):

« ثم خرجت بها -يعني أم مريم بمريم- تحملها إلى بني الكاهن أخي موسى بن عمران- قال: وهم يومئذٍ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجية من الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فإني حررتها، وهي ابنتي، ولا يدخل الكنيسة حائض، وأنا لا أردها إلى بيتي، فقالوا هذه ابنة إمامنا، وكان عمران يؤمهم في الصلاة، وصاحب قربانهم».

وأنت ترى أن حرص الوالدة أم مريم كان سببا في تغيير التقاليد المرعية في ذلك الزمان، وقبلت البنت لتقيم في المحراب، يقول الطبري (٥/ ٣٥٢):

«حتى إذا بلغت أدخلوها الكنيسة، لنذر أمها التي نذرت».

رابعًا- يظهر من تفسير الطبري أن طهر الإقامات يرتبط بوجود فرصٍ مواتية للتعليم والتهذيب والتزكية من غير مشقة ولا صعوبة؛

نظرًا لاختيار محل الإقامة الذي تتوافر فيه سبل التعليم والتزكية، وهو هنا كما كان في المثال السابق بيت الله، بوصفه بيت عبادة وتزكية وبيت علم وتجربة.

خامسًا- يظهر من تفسير الطبري أنَّ من المهم جدًا اختيار محل إقامة الولد بالقرب من القائم عليه بالرعاية، ليتمكن من النهوض بمسئوليات الرعاية الوالدية؛ إذ الأصل فيها- كما سيظهر في الركن المختص بطُهر الكفالات فيما يلي- قيامها على التكرار والتعهد المستمر والتفقد الدائم للأحوال.

سادسًا- يظهر من تفسير الطبري أن مسئولية الرعاية الوالدية الاجتهاد في توفير محل الإقامة للولد، وقد تحقق له السمعة المكانية الطيبة التي تعين على إنجاز برامج الكفالة والتربية، يقول [٥/ ٣٥٨]:

«وأما المحراب فهو مقدَّمٌ كل مجلس ومصلى، وهو ***سيد المجالس***، وأشرفها، وأكرمها، وكذلك هو من المساجد».

ومن ذلك نرى فقه الرعاية الولدية لدى أم مريم ساعة حملتها إلى المحراب، ونرى فقه الرعاية الولدية البديلة لدى زكريا ساعة حملها إلى المحراب بعد نضوجها وتمام نموها.

وربما ذلك الاختيار على نمط من الوعي بتأثير المكان في المقيمين فيه، وهو أمرٌ مستقر في كثير من نتائج الدراسات التي ترى أن للأماكن سطوةً وسلطانًا.

سابعًا- يظهر من تفسير الطبري أن تردد القائم بالرعاية الوالدية على محل الإقامة المختار للولد، وظهور محبته في نفسه، وظهور إلف الارتباط

به مسألة مهمة في قبول الولد لمحل إقامته المختار، وارتباطه به أو محبته والتأثر بالقيم التي تتحرك فيه.

يقول الطبري (٥/ ٣٦٦):

«﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾. وتأويل قوله ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ﴾ فنادته الملائكة حال قيامه، فقوله ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ﴾ خبرٌ عن وقت نداء الملائكة زكريا وقوله ﴿يُصَلِّي﴾ ... حالٌ من القيام...

وأما المحراب (فهو) ... مقدم المسجد» وأشرف مكان فيه والولد سرُّ أبيه، إذا آنس منه محبةً لمكان وارتباط به تعلق به فكان انسرابًا للأثر الإيجابي للمكان الطاهر في نفس الولد بسببٍ مباشر من الرعاية الوالدية.

سابعًا- يظهر من الطبري أنَّ الرعاية الوالدية مسئولةٌ عن رعاية اختيار محل إقامة الولد، يتوافر فيه محددات الطُهر والبركة وما يعين على الطاعة والاستقامة.

لقد اختارت الوالدة ثم الوالد الراعي المحراب، وهو محل إقامة تتنزل فيه الملائكة، وتحفُّه البركة، وتسكنه الطهارة، ويتردد فيه طيب الكلام، ولا يظهر فيه سوى أعمال الإقبال على الله، ولا يظهر فيه ما يشتت الذهن، والقلب، أو ما يثير النفس، ويُخرجها عن السواء والانسجام.

٢/ ٢-علامات طُهر الإقامات

لدى القرطبي في تفسير [٤/ ٦٩-٧٤]:

أولًا- يشير القرطبي إلى ارتباط اختيار محلِّ الإقامة برضا الله سبحانه، يقول تعليقًا على قوله تعالى ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾: «سلك بها كطريق السعداء».

ثانيًا- يوحي القرطبي إلى أنَّ اختيار محلّ الإقامة يراعي فيه أن يكون مبعثًا للسعادة والارتياح.

ثالثًا- يشير القرطبي إلى أنَّ اختيار محلِّ الإقامة يراعى فيه الاشتراطات الصحية النافعة للبدن، يقول القرطبي (٤/ ٦٩):

«فكانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عامٍ واحد».

رابعًا- قرار القرطبي أنَّ من مسئوليات الرعاية الوالدية التوجه إلى اختيار محل الإقامة الذي تتوافر فيه صفات:

- الشرف.
- الكرامة.
- الخصوصية.

يقول (٤/ ٧١):

«المحراب (موضع إقامة مريم).. أكرم موضعٍ في المجلس.. وجاء في الخبر: أنها كانت في غرفةٍ.. يصعد إليها بسلم».

خامسًا- قرر القرطبي أنَّ من تمام طهر الإقامات اختيار محلٍ تتوافر فيه فرص الحياة المادية الطيبة، ووفرة الرزق ما أمكن ذلك.

سادسًا- قرر القرطبي أنَّ من مسئوليات الرعاية الوالدية اختيار محل إقامة الولد، وقد توافرت فيه فرص الحياة المعنوية والنفسية الطيبة.

سابعًا- يشير القرطبي أنَّ من تمام اختيار محل إقامة الولد -تحقيقًا لركن طهر الإقامات- أن يكون نزول الولد فيه محفوفًا بالقبول ومحبة المخالطين المجاورين.

ثامنًا- يشير القرطبي إلى أنَّ من تمام تحقيق طُهر الإقامات التوجه إلى اختيار محل إقامة الولد الذي يعين على:

- فرص التعليم الجيد.
- فرص التَعبُّد.
- تجنب مثيرات الشهوات والذنوب.
- الإعانة على تهذيب اللسان.
- الإعانة على تهذيب تزكية النفس.
- الإعانة على التواصل الإيجابي مع المجاورين والمخالطين.

تاسعًا- ظهور وعي القائم بالرعاية الوالدية عند اختيار محل الإقامة بأثر ذلك في تنشئة الذرية تنشئةً طيبة، وهو ما يظهر من منطوق دعاء زكريا/ الوالد عندما توجه إلى الله تعالى وهو في المحراب طالبًا ذريةً طيبة.

عاشرًا- ظهور الوعي عند اختيار محل إقامة الولد، أن يكون مكانًا تتحقق فيه أمارات البركة، والخيرية، ومحلًا لتنزل الملائكة وحلًا لغياب الشياطين.

وبهذا المثال يتضح لنا أنَّ الكتاب العزيز نوَّع في العناية بركن طهر الإقامات وجعله أساسًا من مسئوليات الرعاية الوالدية، ويقوم به الوالد أبًا أو أمًا على جهة الأصالة، ويقوم به القريب على جهة الوالدية البديلة.

(ثالثاً)

طُهر الكفالات

يشير هذا المبحث مفهوم الكفالة الوارد في حقل التربية والسلوك بوصفه «القيام بأمور(الوليد)، والسعي في مصالحه من طعام وكسوة وتنمية ماله، و(الإنفاق عليه) .. ابتغاء وجه الله تعالى». على مَا جاء في [معجم مصطلحات العلوم الشرعية، إبراهيم بن حماد الرسي وآخرين ، إشراف: د. عبد العزيز محمد السويلم وآخرين ، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية ، الرياض ، ط٢ ، سنة ١٤٣٩هـ= ٢٠٠٧م] (٣/ ١٣٢٩):

وفي هذا المبحث نستعمل مصطلح (الكفالة) بمعنيين هما:

أولًا- الرعاية اللازمة على الوالدين الأصليين نحو الأبناء، التي تشمل السعي عليهم، وتوفير ما به بناء أبدانهم واستقرار نفسياتهم، وتنمية مواهبهم ومَلكاتهم، وتربيتهم وتعليمهم، ومجمل ما يلزم من النفقات.

ثانيًا- الرعاية اللازمة على الوالدية البديلة، وهو ما يُعرف في الاصطلاح الشرعي والتربوي باسم كفالة اليتيم، سواء نهض بها أفراد باختيارهم، أو نهضت بها مؤسساتٌ معنية بتقديم صور هذه الرعاية المادية والمعنوية، والتربوية والتعليمية؛ إلخ.

(١)

يقول تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ

هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾» [سورة آل عمران ٣/ ٣٧].

يتميز هذا النص الكريم بتصريح واضح جدًا للمصطلح الدال على الرعاية الوالدية، وهو مصطلح (الكفالة) المستكن في قوله تعالى ﴿وَكَفَّلَهَا﴾.

ويتميز النص العزيز كذلك بتصريح مفصل لأهم بنود الكفالة، والقيام على الولد بالرعاية باستعمال تعبير عجيب جدًا، ودال جدًا في قوله تعالى ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، والإنبات في الآية تخصيصٌ للرعاية البدنية بالأساس.

وفي إسناد القيام بفعل الرعاية والكفالة إلى الله تعالى في قوله تعالى ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ بيانٌ لجلال الأمر وخطره وقدسيته، ثم إن إسناد القيام بفعل الرعاية والكفالة إلى زكريا -وهو يومئذٍ نبي كريم- دلالة واضحة على الحرص على توفير أجواء الطُهر لمن يقوم بالرعاية والكفالة الوالدية.

ويتجلى في هذا المثال الكريم من أمثلة الكفالة توسيع خريطة القائمين بالرعاية الوالدية، وعدم حصرها في الوالدين البيولوجيين فقط، إلى حدود الوالدية البديلة التي يتوافر فيها عدد من السمات المحققة للأمان، وهي:

أ-طُهر الذات القائمة بالرعاية الوالدية، وتحقيق صفات النبل والمروءة والطهر فيها والوالد البديل هنا نبيٌّ كريم.

ب-استئمان الذات القائمة بالرعاية الوالدية، وتحقق صفات توافر الأمان على الوليد في هذه الذات الراعية، والوالد البديل هنا قريبٌ من المحارم المأمونين بحكم الجبلَّة، أو الفطرة والغريزة، إذ هو زوج خالة

الوليدة المرعية، والمأمونين بحكم الاصطفاء الوهبي المحقق في زكريا بوصفه نبيًا حاز صفات الطهارة والعصمة.

وفيما يلي محاولةٌ لاستنباط مبادئ الرعاية الوالدية المتصلة بركن طهر الكفالات كما تنعكس في هذا النص الكريم:

أولًا- توجه مفهوم الكفالة إلى إحسان التغذية، وبناء البدن، وهو المفهوم الذي تتحرك به دلالة الآية الكريمة ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ وما يترتب على ذلك من توفير الطعام الطيب، والاجتهاد في تجديد الغذاء.

ثانيًا- توجه مفهوم الكفالة إلى إحسان التربية، وتزكية النفس، واستقامة الضمير، يقول الماوردي في [النكت والعيون ١/ ٣١٢]:

« ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ يعني أنشأها إنشاءً حسنًا في حُسن تربيتها».

ثالثا- ظهور استيعاب مفهوم الكفالة في الكتاب العزيز إلى الرعاية الوالدية في مستوى يجمع ما يلي:

أ-إسناد مهمة التغذية إلى الوالد البديل.

ب-إسناد مهمة التربية إلى الوالد البديل.

ج-إسناد مهمة اتخاذ القرارات بشأن الولد في مرحلة طفولته وصِغره.

د-القيام بالتفقد للوليد من جملة مفهوم الكفالة.

رابعًا- ظهور قيام الرعاية الوالدية بالتواصل مع الولد، وتنمية مهاراته التواصلية من طريق توظيف الحوار، واستراتيجية السؤال والجواب، كما يظهر من قوله تعالى ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ (صيغة سؤال)، وكما

يظهر من قوله تعالى ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. (صيغة جواب).

خامسًا- ظهور قيام الرعاية الوالدية بتفقد الحالة الإيمانية للولد، وتثبيت المفاهيم الإيمانية المتعلقة بكون الله رزاقًا، ومعينًا، ورحيمًا، قادرًا سبحانه.

سادسًا- ظهور قيام الرعاية الوالدية بوظيفة تعليم الوليد من أي طريق كانت؛ بمعنى قيام الوالد بالتعليم المباشر إن كان من أهل العلم والتزكيةً كما في حال زكريا مع مريم، أو بإسناد القيام بمهمة تعليم الولد لمن ينهض بتعليمه وتزكيته، كما فعلت أم مريم عندما حملت ابنتها ودفعت بها إلى العلماء أو كهنة بيت الرب.

سابعًا- ظهور الوعي بخصوصية الوليد عند القيام على رعايته، فقد جاء في قصة كفالة زكريا مريم حرصه على سترها في المحراب، وصيانتها في غرفةٍ متعالية يصعد إليها بسلم، وتفقده الأيام المخصوصة التي تتعلق ببيلولوجيا البنت فيرجع بها إلى خالتها حتى تطهر فيعود بها إلى المحراب على قول من يرى أنَّ مريم كانت تحيض شأن كل البنات.

إنَّ هذا المثال الوارد في هذا النص الكريم واضح جدًا، في توجهه إلى تحرر مفهوم الكفالة، والقيام على الوليد بالرعاية والتربية، والتفقد، في استيعابٍ يغطي كل المناطق التي يلزم توجيه الرعاية إليها.

وهو مثالٌ اجتمع فيه وعي الرعاية الوالدية الأصيلة التي نهضت بها الأم في حدود فهمها، ودينها، وتقواها، والوفاء بنذرها بوعي الرعاية الوالدية البديلة التي نهض بها الوالد البديل أو زوج الخالة القريب الحائز لصنوف الكمالات الإيمانية والنفسية والعلمية والاجتماعية.

١/ ١- علامات طُهر الكفالات

لدى الطبري في تفسيره [٥/ ٣٤٤-٣٦٠]:

أولًا- ظهور اتصال مفهوم الكفالة في الرعاية الوالدية للأبناء بالمفاهيم الإيمانية التعبُّدية، وهو ما تجلى في كون الكفالة تتمياً لمسألة النذر الذي كان من الأم التي نذرت ما في بطنها محررًا لله تعالى، فلما وضعتها دفعتها للمحراب، لتبدأ رحلة الكفالة والرعاية.

وهذا يعني أن تربية الولد، والقيام على شأنه مبدؤها أمرٌ تعبدي من جملة أمور التدين والتوجه إلى الله تعالى.

ثانيًا- ظهور الوعي بربط الكفالة والتربية بالأهداف المرجوة في المستقبل، ليكون الولد نافعًا لنفسه ودينه وأمته ووطنه، يقول الطبري (٥/ ٣٤٤):

«إنَّ الله جلَّ ثناؤها تقبل مريم من أمها ... تحريرها إياه، للكنيسة وخدمتها، وخدمة ربها بقبولٍ حسن».

ثالثًا- ظهور توجه الرعاية الوالدية في ركن الكفالات ابتداءً إلى الرعاية البدنية، وتوفير الغذاء، يقول الطبري (٥/ ٣٤٥):

«أنبتها ربُّها في غذائه ورزقه نباتًا حسنًا حتى نمت فكملت امرأةً بالغةً تامة». ويقول أيضا: « نبتت في غذاء الله».

رابعًا- ظهور الوعي بأنَّ الكفالة والرعاية الوالدية تعني ضم الوليد المرعي إلى الوالد الراعي، والقرب منه، والقيام على أمره، يقول الطبري: (٣٤٥):

« ضمها الله إليه (إلى زكريا)، لأن زكريا أيضًا ضمها إليه بإيجاب الله له ضمها إليه». ويقول (٥/ ٣٤٩):

«جعلها زكريا معه في بيته وهو المحراب».

وهو ما يعني أنَّ الكفالة واجبٌ شرعي في حق من يلزمه القيام بها، وواجبٌ مجتمعي، وواجب إنساني.

خامسًا- ظهور الوعي بأثر صلاح الوالد في مسيرة تربية أبنائه بعد رحيله، وقيام البديل بالرعاية، يقول الطبري (٥/ ٣٥١):

« ثم خرجت بها – يعني أم مريم بمريم- وتحملها إلى بني الكاهن، وهم يومئذٍ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجية من الكعبة... فقالوا: هذه ابنة إمامنا، وكان عمران يؤمهم في الصلاة».

سادسًا- اتساع مفهوم الرعاية الوالدية لتشمل:

أ- رعاية الوالد الأصيل لأبناء في حياته.

ب- رعاية الوالد البديل لمن يقدر على ذلك عند فقد الوالد الأصيل، أو عدم قدرته، وعدم أهليته، يقول الطبري(٥/ ٣٥١):

«وكفلها زكريا بعد أبيها وأمها، يذكرها باليُتم».

سابعًا- ظهور الوعي بضرورة تفقد الوليد، وتعهده بالرعاية، وأنَّ ذلك من جملة أعمال الكفالة.

ويشمل التفقد الأحوال التالية:

أ-أحوال المطعم والمشرب، وجملة ما به غذاء البدن.

ب-أحوال التعلُّم.

ج-أحوال التربية والتزكية الإيمانية.

د-أحوال المهارات وتنميتها.

وهذا الوعي ظاهرٌ من تكرار دخول زكريا عليها المحراب، وسؤاله عن غذائها، ومصدره.

ثامنًا- ربما يظهر من تفسير الطبري أنَّ كفالة اليتيم كانت عملًا مؤسسيًا من جملة الأعمال التي استقر تقديمها في الخدمة الكنسية للمقيمين في بيت الله.

وأن هذه الأعمال الخدمية توجهت إلى كفالة اليتامى الملحقين ببيت الرب من الجوانب البدنية، والنفسية، والعقلية جميعًا.

تاسعًا- ظهور الوعي بشرف المكان، محل الإقامة في تحقيق ثمر طهر الكفالات، وهو ما يفتح الباب أمام ضرورة التفكير في ربط المدارس الأولية في بلدان العالم الإسلامي والعربي ببيوت الله تعالى، استثمارًا لشرفها، وبركتها، وجلالها في نفوس الأولاد الصغار.

١/ ٢- علامات طُهر الكفالات

لدى القرطبي في تفسير [٤/ ٦٩-٧٣]:

أولًا- قرر القرطبي (٤/ ٦٩) أن هدف الكفالة والتربية المركزي هو السلوك بالولد طريق السعادة، يقول القرطبي (٤/ ٦٩):

« (فتقبلها ربُّها بقبولٍ حسن)، المعنى: سلك بها طريق السعداء».

ثانيًا- قرر القرطبي أن مفهوم التكفل ينصرف بالأساس إلى التربية والقيام بشأن الولد، وعدم تعريض الولد للأذي، يقول القرطبي (٤/ ٦٩):

« وقال قوم: يعني التقبل: التكفل في التربية والقيام بشأنها، قال الحسن: معنى التقبل: أنه ما عذبها ساعةً قط من ليلٍ ولا نهار».

ثالثًا- قرر القرطبي أن الكفالة أو التربية مفهومٌ واسع يغطي خريطةً واسعة تضم الأعمال التالية:

أ-الحرص على سواء البدن، وتحسين خلقته.

ب -الحرص على تحسين تغذيته.

ج-الحرص على تجويد مكان الإقامة ، ماديًا ومعنويًا.

د- الحرص على تجويد أجواء التربية والتعليم، باختيار المعهد التعليمي والتربوي.

هـ-الحرص على تجويد مادة التعليم، ومفاهيمه، ونُظمه، ومقرراته.

رابعًا- قرر القرطبي أنَّ من تمام مسئوليات الكفالة في الرعاية الوالدية توفير فرص الحياة الجيدة، ومما قرره في هذا الشأن مما يدخل في هذه النقطة ما يلي:

أ-استئجار (ظئر) أو مرضعة.

ب-رعاية خصوصية كون المتعرض للتربية بنتًا، يقول:

(٤/ ٧١): « وكان يغلق عليها الباب». وقال (٤/ ٧١) : « وجاء في الخبر أنها كانت في غرفةٍ كان زكريا يصعد إليها بسلم».

خامسًا- وعي القرطبي أن تفقد أحوال الود وتعهده من جملة القيام بالكفالة.

سادسًا- قرر القرطبي أن ربط الكفالة بالغايات مسألة مهمة جدًا، وهدفه الوصول إلى رتبة الذرية الطيبة بكل دلالات هذا المصطلح القرآني إيمانيًا وسلوكيًا وأخلاقيًا، وعمليًا، ومجتمعيًا.

(٢)

يقول رب العزة سبحانه:

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾. [سورة مريم ١٩/ ٢٨-٣٢].

هذا نصٌّ كريم عزيز يدخل بنا بصورةٍ مباشرة إلى العناصر التي بها يتحقق طهر الكفالات، أو طهر التربية.

وخطر هذا النص الكريم أنه حكاية ما أجراه الله على لسان الوليد الذي لم يُعهد في مثل سنه الحديث الكلام، مما يعني أن هذه العناصر المذكورة في الآيات من جملة المراد الإلهي عند القيام على أمر الأولاد، وتربيتهم والتكفل بما يقيم حياتهم.

النص الكريم صريح في الإعلان عن المبادئ التالية:

أولًا- ظهور أثر الأسرة في تعزيز سياسات التربية، والإقرار بأنَّ صلاح المنبت مهم جدًا في دعم الكفالة، وهو ما يعني أهمية توافر القدوة في عمليات

التربية، وهو الأمر بالغ الوضوح في خطاب الاستنكار الذي وجهت مريم في قوله الله تعالى ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾.

وهو ما يعني أنَّ طُهر المحضن التربوي الأول المتمثل في طهر البدايات، وطهر الإقامات مثمرٌ جدًا في طهر التكفل والرعايات.

ثانيًا- ظهور الإلحاح القرآني على أثر صلاح الوالدية في الجيل الناشئ، وهو ما تواتر الإعلان عنه في كثيرٍ من مواضع الكتاب العزيز وقصصه.

وهذا الصلاح للوالدية يورث الأبناء ما يمكن تسميته بالـ(مروءات المانعة من الرذيلة)، حيث ينشأ الوليد في أجواءٍ تنمي لديه الشعور بالسمو والشرف الذي يمنعه في المستقبل من التورط في الرذائل.

ثالثًا- ظهور تأسيس الكفالة والتربية على البدء بدرس الإقرار لله بالعبودية، قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾.

رابعًا- ظهور تأسيس الكفالة والتربية على إنزال التعليم منزلةً أساسية مركزية، وأنَّ أولى مسئوليات الرعاية الوالدية متوجهة إلى توفير فرص التعليم للوليد الناشئ، ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

خامسًا- توجه الرعاية الوالدية إلى استيعاب عمليات التربية والكفالة لتغطي مساحات حركة الوليد وحياته كلها، وصولًا بها إلى أعلى درجات الطُهر والتزكية والنفع، وكمال العقل.

سادسًا- ظهور الربط بين الكفالة وأهدافها التي يتجهز الوليد لحصادها وإنجازها وقد لخَّصها الماوردي فقال [٢/ ٥٩٠]:

- معرفة الله والدعوة إليه.

- تعليم الناس الخير.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سابعًا- ضرورة ظهور الوعي بتفصيلات التربية، والبدء بالتربية الدينية والأخلاقية، وقد فصلت الآيات في برنامج التربية فذكرت ما يلي: [انظر : النكت والعيون ٢/ ٥٩١]:

أ -الحرص على الصلاة، وعوائدها من استقامة السلوك.

ب-الحرص على طهارة الباطن، والاستكثار من الطاعة، وتعوُّد البذل.

ج-التعود على خدمة الوالدين، والبرِّ بهما.

د- التعود على التعليم، والاستمرار في طلبه، فقد جاء في معنى ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا﴾ أي لم يجعلني جاهلًا بأحكام شرعه سبحانه.

هـ- تعويد النفس على التواضع، وتجنب الكِبر، وتقبُّل النُّصح.

و-اجتناب الظلم في المعاملات.

ز- السير في الحياة بغير الارتباط أو التعلق بها.

ثامنًا- الحرص على تنمية مهارات التواصل لدى الوليد، وفي مقدمتها تنمية القدرة اللغوية، بوصفها وسيلة إدراكٍ بالغة الأهمية في الوجود الحيِّ، ولاسيما عند إعداد النشء للقيام بمهمات خدمة الخلق، ودعوتهم، وتعليمهم، وسياسة أمورهم؛ وهو الأمر الذي يمكن استنباطه من قول الله تعالى ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾.

تاسعًا- الإلحاح على أهمية الحوار، والمناقشة في عمليات التربية والكفالة دعمًا لتعزيز القدرة على التعامل مع الناس، وترشيد سياسات الاجتماع، والنفع العام.

عاشرًا- حضور الوعي بأهمية البدء المبكر بالتعليم، والتنوع في برامجه مع العناية الواضحة بالميادين التالية:

أ-تعليم اللغة، ومهارات التواصل والحوار.

ب-تعليم العبادات، وربطها بالغايات الأخلاقية والإيمانية.

ج-تعليم التدبير وسياسة المال وإحسان التعامل معه.

د- تعليم الأخلاق والسلوك القويم.

إنَّ قيمة هذا المثال في فحص طُهر الكفالات في الكتاب العزيز تتجلى من كونه دالًا على معجزة فجَّرها الله سبحانه في نفس صبي لم يُعهد في مثل سنه ما صدر منه، وهو ما يعني أنَّ التفصيلات التي وردتْ على لسانه هي من مرادات الله تعالى التي يحب من عباده أن ينشئوا أولادهم عليها، وهو ما يلزم عند أي تفكير في تطوير برامج التربية والتعليم التنبُّه إليها واستلهامها.

٢/ ١-علامات طُهر الكفالات لدى الطبري في تفسيره [١٥/ ٥٢٣-٥٣٣]

أولًا- قرر الطبري أهمية نشوء الولد في بيتٍ يُعرف أهله بالصلاح، قال عن مريم (١٥/ ٥٢٣) : «كانت من أهل بيتٍ يُعرفون بالصلاح، ولا يعرفون بالفساد، ومن الناس من يعرف بالصلاح وتوالدون به».

ومن فضل الله أنَّ النسب الصالح يمتد في الولد أجيالًا طويلة، ويثمر ثمراتٍ واضحة.

ثانيًا- قرر الطبري أهمية الأخلاق الأساسية التي يلزم المتكفلون تربية النشء عليها، وفي مقدمتها التربية على العفَّة، والتربية على تجنُّب السوء والفسق.

ثالثًا- ظهور أهمية التعليم في تربية النشء، ومواجهة الحياة ومشكلاتها وهو المستفاد من قوله تعالى ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

والحقيقة أن هذه النقطة تفرض عدَّة واجبات هي:

أ-ضرورة تحكيم الوحي بوصفه المرجعية الأم في برامج تربية النشء في الأمة بصورةٍ أساسية، وعدم اللجوء إلى استيراد البرامج التربوية من نماذج معرفية مغايرة للنموذج المعرفي في الأمة.

ب-أهمية البدء المبكر بالتعليم.

ج-تطوير برامج الاعتماد على الكتاب بوصفه ركنًا أساسيًا في عمليات التعليم المتنوعة.

رابعًا- قرر الطبري أهمية ربط برامج التكفل والتربية بالجوانب العملية في الحياة. يقول(٥١/ ٥٣٠):

«وقوله ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ ...، معناه : وجعلني نفاعًا ... وقال آخرون: كانت بركته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وأخرج الطبري أيضًا (١٥/ ٥٣١) وقال آخرون معنى ذلك أيضًا: جعلني معلم الخير».

خامسًا- قرر الطبري أن التربية الدينية هي أساس التكفل والقيام بأمر النشء، وتتمثل أصول التربية الدينية فيما يلي:

أ-المحافظة على الصلاة، وإقامتها على ما فرضها الله تعالى.

ب-المحافظة على تطهير الجسد.

ج-المحافظة على تطهير النفس وتزكيتها.

د-التدريب على التربية الاقتصادية بمعرفة حق الله والناس في الأموال. (انظر تفسير الطبري ١٥/ ٥٣١).

سادسًا- قرر الطبري أنَّ التكفل والتربية عملٌ مستمر لا يتوقف عند حقبةٍ زمنية بعينها.

سابعًا- قرر الطبري أنَّ التربية على برِّ الآباء من أصول ما يلزم غرسه في الأولاود، وأنه من جانب معيارٌ لقياس ثمرة التربية الطيبة.

ثامنًا- قرر الطبري أنَّ من الأصول التي يلزم القيام بها على تربية النشء على عدم الاستكبار في الأرض والتعويد على التواضع العملي، ولين القلب والجانب للناس.

تاسعًا- قرر الطبري ضرورة ربط برامج التكفل والتربية بمنع مادة التجبُّر، والاستكبار، والبطش بالخلق، يقول الطبري(١٥/ ٥٣٣):

«قوله (ولم يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) يقول: ولم يجعلني مستكبرًا على الله فيما أمرني به، ونهاني عنه، شقيًا، ولكن ذللني لطاعته وجعلني متواضعًا».

والحقيقة أن أهمية هذه المبادئ والقواعد والأصول التربوية التي تظهر من فحص تفسير الطبري لهذه الآيات الكريمة راجعة إلى التأتي لها من طريق الرواية والمأثور الذي يتصل بها تلقته أجيال الأمة في عصور الخيرية من رسول الله ﷺ.

كما أنَّ هذا المثال تعيينًا يمثل أهميةً خاصة للظروف المعجزة التي أحاطت به من أمر جريان هذه القواعد على لسان وليدٍ مثَّل معجزة في تاريخ الدنيا، وصدقت سيرته العملية اللينة والصادقة والمتواضعة والنافعة ما جرى على لسانه يوم أنطقه الله سبحانه في مواجهة القوم انتصارًا لمقام الوالدة الكريمة التي أحسنت بذل الرعاية الوالدية له.

٢/ ٢- علامات طُهر الكفالات

لدى القرطبي في تفسيره [١١/ ٩٩-١٠٤]:

أولًا- قرر الطبري أهمية صلاح البيت في حياطة عمليات التكفل والرعاية والتربية، يقول عن بيت مريم (١١/ ٩٩) : «وكانوا أهل بيتٍ صالحين».

ثانيًا- قرر القرطبي أهمية التنشئة على ضبط اللسان، وتجنبنا فحش القول، وعدم الخوض في الباطل، وعدم جريان السوء على الألسنة، أو مدِّ الأيدي إلى السوء.

ثالثًا- قرر الطبري (١١/ ١٠٠) أنَّ برامج التكفل والتربية في الرعاية الوالدية تبدأ من استثمار سمعة البيت، وتاريخه في الصلاح، والتوجه ببرامج التربية بخدمة الدين، يقول القرطبي:

«كانت موقوفة على خدمة البيع» (أي بيوت العبادة)، وهو ميراثٌ وصل إليها مباشرةً من أسرةٍ كانت أصولها الأولى عابدة منقطعة إلى الله عز وجل.

رابعًا- ظهور أهمية البدء بتربية النشء على مفاهيم الربوبية، والنعم الربانية التي يمنحها الله تعالى خلقه، يقول القرطبي (١١/ ١٠٢)

«كان أو ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى وربوبيته».

خامسًا- ظهور أهمية قيام الرعاية الوالدية في ركن طهر الكفالات بتعلم الوحي بوصفه المرجعية العليا الضابطة لحركة الحياة، يقول (١١/ ١٠٢) «آتاه .. الكتاب، وفهمه وعلَّمه».

سادسًا- قرر القرطبي ضرورة توخي ربط برامج التكفل والرعاية الوالدية بتحقيق عوائد النفع العام، يقول القرطبي (١١/ ١٠٣):

«وجعلني مباركًا: أي ذا بركات، ومنافع في الدين والدعاء إليه، ومعلمًا له... وجعلني آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر وأرشد الضال، وأنصر المظلوم، وأغيث الملهوف».

سابعًا- قرر القرطبي أهمية التكفل والرعاية الوالدية من طريق التعويد على العبادات الكبرى، ولاسيما الصلاة، وتجنب المعاصي أو الحرص على التزكية.

ثامنًا- قرر القرطبي أهمية قيام الرعاية الوالدية بتدريب النشء على عدم التكبر وبذل التواضع، وعمل الخير للناس، وهو ما قرره في سياق استخراج الأحكام المستكنة في قوله تعالى ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾.

تاسعًا- قرر القرطبي أهمية توجه برامج الرعاية الوالدية إلى تدريب النشء على الكلام الكريم الحسن.

إنَّ هذا المثال المختار الدال مع سابقه على نمطٍ من ظهور الكفالات يكشفان عن حضور الاهتمام بالرعاية الوالدية والكتاب العزيز من جوانب متنوعة طالت ما يلي:

أ-تنوع مراكز النهوض بالرعاية الوالدية، من والدية أصيلة، ووالدية بديلة.

ب-ظهور أهمية التفويض الفعال في عمليات الرعاية الوالدية والتربية وتعهد النشء بالإصلاح، فقد ظهر إسناد التكفل إلى زكريا وهو ليس والدًا بيولوجيا، وقد ظهر- في بعض الروايات- تكليف (جريج النجار) بتوفير الطعام والغذاء لمريم.

ج-ظهور العناية بتفصيلات التكفل في الكتاب العزيز، واستيعابها للرعاية المادية (البدنية)، والنفسية (التزكية) والعبادية، والإيمانية، والعقلية والذهنية (التعاليم)؛ وهو ما يدل على أهمية ركن طُهر الكفالات في المرجعية الإسلامية بصورة واضحة.

د-ظهور العناية بأهمية احترام التخصص في ميادين الكفالة عند تنوعها، وعدم قدرة واحدٍ بعينه على القيام بها، فقد رأينا إسناد بعض المهمات لعدد من المتكفلين مع قيام الراعي الأساسي بوظائف الإشراف والمتابعة.

هـ- ظهور الوعي بأنَّ عمليات التكفل والتربية علمياتٌ مستمرة دائمة.

و-ظهور الوعي بالغايات والمقاصد المرجوة في تنفيذ عمليات التربية وتقديم واجبات الرعاية الوالدية، وهي مقاصد عملية تهدف إلى تكوين إنسانٍ صالح، يتحرك بالخير والنفع.

(رابعًا)

حضور النُّبل والمروءة في القيام بالمسئوليات

يتصل هذا الركن من أركان الرعاية الوالدية الذي أطلقنا عليه (حضور النُبل والمروءة في القيام بالمسئوليات) اتصالًا وثيقًا بركن طُهر الكفالات، بدرجة تجعل منه استكمالًا وتتمة من جانب، وتجعل منه معيارًا يقيس كفاءة إنجاز عمليات التكفل التي تنهض بها الرعاية الوالدية نحو النشء من جانبٍ آخر.

إنَّ المقصود بحضور النُبل والمروءات في نهوض الرعاية الوالدية بالمسئوليات يتوجه إلى القيام بما يلي:

أ-منح النشء الصغير الذي يقيم بين أسرته جميعًا نموذجًا من القدوة العملية الإيجابية في مواقف الحياة الصعبة والمؤثرة.

ب-وترجمة ما تحصَّل عليه النشء في مراحله السابقة من برامج التكفل، والرعاية له في صور القيام بمسئولياتٍ عملية تجاه الأسرة كلها، ولاسيما مناطق الضعف فيها ممثلةً في:

- الأولاد.

- والزوجة، تعكس نبل النموذج المعرفي الإسلامي للرعاية الوالدية التي تلزم الوالد (الرجل) القيام بها أصالةً.

ج-وترجمة ما ورد في البنود والأركان الثلاثة السابقة؛ أي في ركن طهر البدايات، وركن طهر الإقامات، وركن طهر الكفالات، بصورةٍ عملية في مواقف عملية فارقة ومؤثرة وحاكمة في مسيرة الأسرة جميعًا.

وقد توجهت النية إلى اختيار مثالين توافر فيهما القيام بالمسئوليات نحو الأسرة بوصفه واجبًا شرعيًا وأخلاقيًا فرديًا بالأساس يلزم القيام به ترجمة للوعي بالمسئولية الفردية، وكذلك القيام بالمسئوليات نحو المجتمع بوصفه واجبًا شرعيًا وأخلاقيًا يعكس الوعي بطبيعة النموذج المعرفي الإسلامي الذي يحرص على تعدي النفع، وخدمة الخلق بوصف هذين الطريقين سبيلًا لتحقيق السعادة والنجاة.

(١)

يقول تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ ﴾. [سورة طه ٢٠/ ٩-١٦].

ويقول تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. [سورة القصص ٢٨/ ٢٩-٣٠].

هذا مثالٌ عبقري يقفز إلى المقدمة أو المركز عند فحص ما سميناه باسم (حضور النبل والمروءات في القيام بالمسئوليات).

وعبقرية المثال تتجلى في عدة نقاطٍ ظاهرة هي:

أ-أنَّ بكلا المثالين والدٌ أصيل، هو نبي الله موسى عليه السلام.

ب-وأنَّ المشهد جامعٌ للأسرة كاملة، الوالد والوالدة والأولاد.

ج-وأنَّ المشهد يصوِّر ما يمكن أن يمثل حصاد لمرحلة طُهر البدايات (نموذج اختيار الرعاية الوالدية لزوج البنت)، وتمثل حصادًا لطهر الإقامات (في ظل والدٍ أصيل للزوجة، ووالد بديل لموسى، هو شعيب يصدقه، ويحميه، ويؤمنه؛ وبيئةٍ آمنة بعيدًا عن أجواء الاستبداد، وأجواء حياة الظالمين).

د-وأنَّ المشهد يأتي في سياق القدوم على مهمةٍ جليلة بعد حدوث تحول نوعي يتيح لموسى العودة إلى وطنه لمقاومة سياقاتٍ ظالمة.

هـ- وأن المشهد يصوِّر بشكلٍ واضح حدود المسئولية الفردية للرعاية الوالدية الأصيلة التي يمثلها الزوج/ الوالد، وهو في القصة في مشهديها المذكورين، سيدنا موسى عليه السلام.

وفيما يلي محاولةٌ تهدف إلى رصد أبعاد مسئوليات الرعاية الوالدية الأصيلة في ركن حضور النبل والمروءات في القيام بالمسئوليات:

أولًا-ظهور الوعي بمسئولية عدم تعريض الولد والأسرة للمخاطر الراجحة، والاقتراب من النار من المخاطر الراجحة في الثقافات الإنسانية، ولاسيما إذا كان السياق سياق طرائق أو اشتعالات، أو انفجارات، وهو

الأمر المستفاد من تعليل موسى لأهله بالمكث أو البعد بعيدًا، بظهور النار بمخاطرها الراجحة فقال لأهله ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾

ثانيًا- ظهور الوعي بأنَّ مسئولية الرعاية الوالدية تتوجه بالأساس إلى توفير القيام بالأمان والحماية المادية مما يمثل خطرًا أو اعتداءً، ولزوم الدفاع عن الأولاد ضد هذه المخاطر المحتملة.

يقول الماوردي [النكت والعيون ٣/ ١٠]:

« ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾؛ أي بنارٍ تصطلون بها «أو تحقق لهم الاستدفاء، ولاسيما أنَّ الأجواء كانت باردةً، وكانت الليلة زمان القصة في الشتاء».

والحقيقة أنَّ تحليل المفردة القرآنية ﴿قَبَس﴾ ـ يتحرك بحمولاتٍ دلالية مادية ترمي إلى تحديد المسئوليات التالية:

أ-حماية الولد والأسرة من مخاطر الطقس أو المُناخ.

ب-حماية الولد والأسرة من المخاطر البيئية.

ج-حماية الولد والأسرة من مخاطر الكوارث أو الحوادث قبل وقوعها، عندما تظهر أماراتٌ أو علامات تشير إلى قرب وقوعها.

د- السعي نحو تحقيق الأمان البدني من الجوانب المختلفة.

هـ-السعي نحو محاصرة الظلام بكل دلالاته السلبية.

ثالثًا- ظهور الوعي بأنَّ مسئولية الرعاية الوالدية تتوجه بالأساس إلى توفير فرص التعلم والتربية والتزكية، وتنمية المهارات المختلفة عقليًا ونفسيًا ووجدانيًا واجتماعيًا.

وهذه النقطة ظاهرةٌ في قوله تعالى ﴿أو أجدَ على النارِ هُدى﴾ في آية سورة طه وفي قوله تعالى﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ ﴾ في آية سورة القصص.

والتحليل الدلالي للمصطلحين القرآنيين: ﴿هدى﴾ و ﴿خبر﴾ يكشف عن وجوب قيام الرعاية الوالدية بمسئولية توفير فرص التعليم الجيد، والتزكية والتهذيب الأخلاقي، وتوريث الخبرات والتجارب التي تعين على الاستقامة في الحياة، وهي الدلالات الواضحة لكلمة (هدى) بتوجهاتها الإيجابية، والمتفائلة.

أضف إلى ذلك ظهور تحميل الرعاية الوالدية بالمسئوليات الواضحة المتعلقة بتنمية المهارات العقلية والذهنية من خلال فحص دلالات الكلمة القرآنية ﴿خبر﴾، التي تقرر أهمية توفير المعلومات والتدريب على التعامل مع مصادر المعلومات وكيفية تحليل المعلومات، والإفادة منها، ووضع الخطط المستقبلية المركِّزة على قراءة الواقع بكل دقَّة.

رابعًا- تقرر الآيات بصورةٍ واضحة وجوب سعي الرعاية الوالدية إلى تأمين فرص الحياة في سياقاتٍ تحيطها علامات طُهر الإقامات، وهو أمر سبق بيانه في مبحثٍ سابق، وتشير إليه الآيات هنا صريحةً بوصفه من جملة مسئوليات الرعايةٍ الوالدية، يقول الماوردي: «﴿بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾، وهو المبارك « وقيل إنه المطهَّر»، ويقول في البقعة المباركة. وهو ما يؤكد الأمر في حكاية المشهد وتصويره في السورتين الكريمتين.

خامسًا- تقرر الآيات بصورةٍ واضحة أنَّ الرعاية الوالدية يلزمها إظهار القيام بالمسئوليات أمام أفرادٍ الأسرة تعويدًا أو تدريبًا لهم على السلوكيات المستقيمة، وفي مقدمة هذه السوكيات ما يلي:

أ-تشريف الأماكن المقدَّسة ترجمةً لمعاني الإيمان، وتعظيم شعائر الله كما يظهر من أمر الله لموسى ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾

وربما أشار الأمر بخلع النعلين توجيه نظر الرعاية الوالدية إلى نمطٍ من تطييب الملابس، واختيارها وفق مواصفاتٍ خاصة تتعلق بالطهارة.

وهذه النقطة الفرعية ملمحٌ مهم جدًا في توسيع النظر القرآني لمسئوليات الرعاية الوالدية، لتشمل أصناف الملابس، وإنَّ للملابس تأثيرًا ماديًا ومعنويًا في بناء الذات منذ الصغر.

سادسًا- ظهور تركيز النموذج المعرفي الإسلامي كما يتجلى في مشهدي القصة في السورتين على تحقيق (الكرامة) أو التكريم لمنطقتي:

- الأمومة.
- والطفولة.

وهو ما يظهر بصورةٍ واضحة في قوله تعالى ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ في السورتين؛ ذلك أن الأهل في المصطلح القرآني تتحرك بحمولات الدلالة على:

- الزوجة.
- والأولاد.

أي كل أفراد الأسرة.

وتحليل معنى الأمر ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ دلالات واضحة تهدف إلى:

أ-تجنيب الزوجة التعب، وتحمله عنها.

ب-تجنيب الزوجة الشرور المحتملة.

ج-الاجتهاد في توفير المحال الآمنة عند الترك المؤقت للزوجة والأولاد.

سابعًا- تشير الآيات إلى أنَّ الرعاية الوالدية تفرض الصحبة واجتماع الأسرة في الإقامات والأسفار ما لم يتعذر ذلك، وقد نطقت آيات سورة القصص بذلك عندما قال الله تعالى (وسار بأهله)

ثانيًا- ظهور الوعي الواضح أنَّ مسئوليات الرعاية الوالدية إن كانت جل أمرها من مسئوليات الوالد- رب الأسرة – فإنَّ الحقيقة تقول أنها هذه المسئوليات بالأساس مشاركة بين الوالد (رب الأسرة)، أو الوالد (ربة الأسرة)، وهو ما يتضح مما يلي:

أ-انتقال الزوجة والسير مع زوجها في رحلة الحياة والإقامة معه.

ب-مشاركة الزوجة للزوج في تحمل المهمات.

ج-حضور قدرٍ من العلم والخبرة السلوكية لدى الزوجة عندما يضطر الوالد إلى نوعٍ من السعي يفرض غيابه المؤقت عنها، فقد مكثت وقتًا بعيدًا عنه في رحلة طلبًا لما به تأمين حياة الأسرة ماديًا ومعرفيًا.

إنَّ عبقرية هذا المثال أو النموذج القرآني أنه يترجم المحبة بصورةٍ عملية إيجابية، لقد ترجم الوالد عن حبه لزوجته وأولاده في عدة صورٍ عملية واضحة هي:

أ-الاجتهاد في تجنيبهم المخاطر المادية المحتملة.

ب-السعي في توفير فرص الحياة الجيدة والآمنة من المنظور المادي.

ج-السعي في توفير فرص الحياة الجيدة والآمنة من المنظور المعرفي والنفسي.

١/ ١- علامات حضور النُبل والمروءات في القيام بالمسئوليات لدى الطبري في تفسيره [١٠/ ١٥٦-١٨٠ ؛ ١١/ ٤٦١- ٤٦٣]:

أولًا- قرر الطبري أنَّ المروءة الوالدية تفرض الاجتهاد في البحث عن سبيلٍ للهداية (١٠/ ١٦٢).

ثانيًا- قرر الطبري أنَّ مسئوليات الوالدية تتوجه لحماية الأسرة من التيه والضياع؛ يقول « قال: من يهديني إلى الطريق، وكانوا شاتين (في الشتاء) فضلُّوا الطريق».

ثالثًا- قرر الطبري أنَّ مسئوليات الرعاية الوالدية تتوجه إلى توفير ما به حفظ مادة حياة الأسرة والحفاظ عليها، يقول (١٠/ ١٦٣): «وقوله ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ قال: «هادٍ يهديه إلى الماء».

رابعًا- قرر الطبري (١٠/ ١٧١) أنَّ على الرعاية الوالدية أن تبذل من السلوك ما به تعليم الأولاد تعظيم الشرائع والمناسك، وتقدير الأماكن المقدسة.

وهو ما يعني أنَّ (الوالدية) مسئولة عن تهذيب سلوك الأولاد وتزكيتهم من طريق الممارسات اليومية المألوفة في الحركة والسكون والطعام والشراب، والدخول والخروج... إلخ.

خامسًا- قرر الطبري (١٠/ ١٧٤) أنَّ البدء في التعليم والتربية هو ترسيخ قيم الربوبية في نفس النشء، وترسيخ مفهوم العبودية في النفوس، يقول (١٠/ ١٧٥):

« قوله ﴿إِنَّنِي أنا الله لا إله إلا أَنَا فاعْبُدنِي﴾. مَن جاءني بشهادة أن لاإله إلا الله بالإخلاص دخل في حصني، ومن دَخل في حصني أمن من عذابي».

وهذه غاية الغايات من كل عمليات القيام بالرعاية الوالدية، والنهوض بها يفرض على الوالد القيام بالمسئوليات تجاه الأولاد، وفي مقدمتها التربية الدينية، والتدريب على إقامة العبادات، يقول: « ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكرِي﴾. يتضمن ما يلي:

أ-التقرب إلى الله من طريق ما فرض سبحانه على خلقه من عباداتٍ وفي مقدمتها الصلاة.

ب-الداوم على الاستغفار.

ج-الحرص على النظافة والوضوء.

د-الحرص على الارتباط بالله والمداومة على ذِكره من طرق الارتباط بالصلاة.

وفي هذه النقطة يوشك الطبري أن يشير إلى أنَّ المسئولية الوالدية تلزم تذكير الأولاد بصورةٍ دائمة بالصلاة والعبادات.

سادسًا- يفهم من تفسير الطبري ١١/ ٤٦١ أنَّ الرعاية الوالدية تلزم تأمين محال الإقامات، وهو ما يشير إليه الطبري أن السير بالأهل كان بعد انقضاء الأجل المحفوف بالمخاطر.

سابعًا- ظهور ما يوحي بأنَّ الرعاية الوالدية يلزمها تجنيب الأسرة للمخاطر، والتهديدات، والأزمات، وتأمينها في الإقامة وتأمينها في الانتقال والسفر.

١/ ٢- علامات حضور النُّبل والمروءات

في القيام بالمسئوليات لدى القرطبي في تفسيره[١١/ ١٧١- ١٨٥؛ ١٣/ ٢٨٠-٢٨٣]:

أولًا- قرر القرطبي أنَّ النبل والمروءات في قيام الوالد بالمسئوليات تحمل على حياطة أهله بالغيرة، فقد كان موسى عليه السلام رجلًا غيورًا».

ثانيًا- قرر القرطبي أن الرعاية الوالدية تفرض تحقيق الأمان لأهله، والسعي من أجل ذلك.

ثالثًا- يبدو من تفسير القرطبي حضور الوعي بأنَّ النُّبل والمروءات تحملان الوالد أو رب الأسرة على تجنيب الأسرة المتاعب، وطلب الراحة لهم، تكريمًا وتشريفًا.

رابعًا- قرر القرطبي أنَّ المروءات تفرض على الوالد السعي من أجل:

أ-توفير مقومات الحياة المادية الجيدة المتمثلة في توفير المسكن، والملبس، وأداوت الحياة، والحماية من مخاطر البيئة والطقس والمناخ... إلخ.

ب-توفير مقومات الحياة المعنوية المتمثلة في التعليم وتنمية المهارات.

خامسًا- قرر القرطبي أنَّ المروءات والنبل تفرض على الوالد أن يتمتع بسلوكٍ مهذب فلا يطأ على بساط رب العالمين بفعله». على حد تعبيره (١١/ ١٧٣).

وهو الأمر الذي يعني أنَّ الرعاية الولدية تتجاوز حدود القيام بالمسئوليات المادية إلى القيام بالمسئوليات التي تهدف تعزيز السلوك المهذب الراقي في نفوس الأولاد.

سادسًا- قرر القرطبي ظهور أهمية قيام الرعاية الوالدية بمسئوليات تعليم النشء حقائق الربوبية والعبودية لله.

سابعًا- قرر القرطبي أهمية قيام الرعاية الوالدية بمسئوليات تدريب الأولاد على الطهارة المادية والنفسية.

ثامنًا- قرر القرطبي أهمية قيام الرعاية الوالدية بمسئوليات تعليم النشء حقائق دينه، وتحويلها لممارساتٍ عملية في الحياة وهي:

أ -تقديس الأماكن المقدسة، وهو ما يعني أهمية دراسة الجغرافيا والآثار.

ب -تدريب الأولاد على حرية الاختيار، والتفكير في قوانين ما به الارتقاء الإنساني.

ت -تقديس الوحي، وتقديم حقائقه، والدوران حولها.

ث -واستفراغ الوسع في خدمته، واستلهامه في الوجود.

د- تعليم النشء العبادات، والحرص عليها، ربطها بغاياتها.

تاسعًا- قرر القرطبي ما يفهم منه أن الرعاية الوالدية تلزمنا النهوض بمسئولياتٍ كثيرة نحو تربية النشء تتجاوز حدود التعليم والتربية والتدريب إلى حدود الإشراف والمتابعة، تتمثل في هذه المشهد فيما يلي:

أولًا- القيام بمسئولية المتابعة.

ثانيًا- القيام بمسئولية الإشراف.

ثالثًا- القيام بمسئولية التذكير، وقبول الأعذار، والتوسع في تفهم الطبيعة البشرية المسكونة بالنسيان، والتعرض للضغوط.

رابعًا- القيام بمسئوليات تعديل السلوك عند ظهور ما يخالف المسلك الإيجابي في الحياة.

ويرى القرطبي أنَّ القيام بهذه المسئوليات يحسن صدوره عن إيمان بالمروءة الحاملة على البذل المحبب.

عاشرًا- قرر القرطبي أنَّ الأسرة كيانٌ راقٍ جدًا يمنح الرعاية الوالدية (١٣/ ٢٨١) المتمثلة في الزوج أن «يذهب بأهله حيث شاء» إن لم يلتزم أمرًا يخالف ذلك.

حادي عشر- قرر القرطبي أنَّ الرعاية الوالدية درجاتٌ متفاوتة متمايزة، وأنَّ القائمين بالمسئوليات تحت هذه الراية يتفاوتون في القيام بهذه المسئوليات تبعًا لدرجات ما يتمتعون به من النبل والمروءة.

وهذا التفاوت مرجعه إلى الهبات الربانية التي يتفضل بها على قطاعٍ من الآباء دون قطاع آخر.

لكن على الجميع أن يجتهد وسعه في النهوض بالمسئوليات الوالدية على قاعدتي رعاية الشريعة، ومقتضيات النُبل والمروءة الوهبية والكسبية.

ثاني عشر- يظهر من تفسير القرطبي (١٣/ ٢٨٣) أنَّ الناس مجبولون على الضعف، يقول: إنَّ الإنسان « ضعيف خُلق من ضعف». وهو ما يعني ما يلي:

أ-تقدير الضعف الإنساني في عمليات الرعاية الوالدية، والتماس الأعذار لما يصدر بسبب هذا الضعف.

ب-تقدير المخاوف الإنسانية بوصفها أمرًا طبيعيًا في صدوره عن الإنسان المجبول على الضعف، وهو ما يحمل قوانين الوالدية على تقدير مخاوف النشء في أحيانٍ كثيرة، والتعامل معها بصورةٍ هادئةٍ وآمنة ومتفهمة.

إن هذا المثال في مشهديه من سورتي طه (٢٠) والقصص (٢٨) يتقدم بنا خطوةً واضحة مفصلة تفرض المسئوليات الوالدية المتلبسة بموقف عملي صعب، تحيط به التحديات والمخاطر المادية والنفسية وتجتمع فيه الأسرة جميعًا: (زوجة وأولاد) في كنف الوالد المسئول النبيل الذي يتحرك بموجب قواعد الشرع، وقوانين المروءة.

(٢)

يقول ربُّ العزة سبحانه:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾. [سورة القصص ٢٨/ ٢٣-٢٤].

هذا مثالٌ بالغ الوضوح على نمط مسئوليات الوالدية التي تتجاوز حدود الأسرة والذرية إلى حدود المجتمع وخدمة الجماهير، وتعدي النفع العام، والتحرك بما تمليه مقتضيات النُّبل والمروءة.

وفيما يلي محاولةٌ لفحص علامات حضور النبل والمروءات عند القيام بالمسئوليات نحو المجتمع بوصفه المجال الأوسع لحركة الوالدية في النموذج المعرفي الإسلامي:

أولًا- ظهور الوعي بطبيعة المجتمع الذي تتحرك فيه (الوالدية) بمفهومها الموسع، وتفهم التقاليد الحاكمة فيه، وتفهم مشكلاته الاجتماعية التي تضغط على تشكيلاته السكانية، وهو ما يمكن أن نلحظه في قوله تعالى: ﴿فلمَّا وردَ ماءَ مَدين وجدَ عليه أمَّةً مِن الناسِ يسقونَ ومِن دونِهم امرَأتينِ تَذودَانِ﴾. وهو ما يشير إلى ما يلي:

أ-أنَّ القوة العاملة الضاربة الأساسية هى من الرجال.

ب-أن ثمة غيابٍ لتنظيم الحصول على الاحتياجات الأساسية تبعًا للنوع الإنساني.

ج-ثمة غياب لمقتضيات رعاية مناطق الضعف الإنساني مما اضطر المرأتين للوقوف بعيدًا انتظارًا لهدوء المجال حول الماء.

ثانيًا- ظهور الوعي بأهمية التقدم نحو خدمة مناطق الضعف في المواقف المأزومة المُلِحَّة بداعي المروءة والنبل، وهو ما ترجمت عنه الآيات في صورة سؤال موسى للمرأتين، وتفقده أحوالهما ﴿قَال ما خَطبكما﴾

وتحليل السؤال من الوجهة النحوية يكشف عن استصحاب المثالية النحوية بلا أية تطويلات التزامًا بأدب التواصل، والابتعاد عن مناطق الفضول في هذا التواصل.

ثالثًا- ظهور الوعي بأهمية استجابة مناطق الضعف لمن يمد يد المعونة والمساعدة تفهمًا لاستبقاء المروءات في الوجود الحي، من دون الوقوع في مواطن الرّيبة، وهو ما ينعكس من جواب المرأتين ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾. وجملة (أبونا شيخ كبير) سيقت

مساق: الاعتذار إلى موسى من معاناتهما سقي الغنم بأنفسهما، كما قرر الماوردي في [النكت والعيون ٣/ ٢٥٣] من جانب، وقبولًا لمساعدة موسى عليه السلام من جانبٍ آخر.

وهذا النمط من التعليل في الجواب نوعٌ من الحماية الاجتماعية الذاتية التي يلزم التحرك بها منعًا من جرِّ سوء الظن بمناطق الضعف الإنساني على نفسها.

رابعًا- ظهور الوعي بإنجاز ما تقدر عليه النفس بداعية المروءة، وهو ما ترجمت عنه الآية الكريمة عندما قال الله تعالى ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

وهذه الجملة استجابةٌ نبيلة لإعانة مناطق الضعف التي ترجمته عن نفسها في سياقٍ مجتمعي لم يرحم ضعف المرأتين ومعاناتهما.

خامسًا- ظهور الوعي بأنَّ إنجاز المسئوليات التي تفرضها دواعي المروءات يفرض عدم انتظار الآخر، أو الاستمرار بسبب فيما قد يؤول خطأً، وهو ما ظهر التعبير عنه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾.

وهو ما يعني أنَّ النهوض بالمسئوليات بداعية المروءة ترجمةٌ للقيام بمساعدة مناطق الضعف ابتغاء وجه الله تعالى بالأساس، وشكر الله على النعمة التي منحها للقادر وسلبها من العاجز من جانبٍ ثانٍ.

سادسًا- ظهور الوعي بأهمية استدعاء القدرة على تحمل قسوة الحياة، واستفراد الملكات لمواجهة شدائدها، وأنَّ هذه القسوة لا تمنع من مد يد العون ومساعدة الضعيف في حركة الوجود.

سابعًا- ظهور الوعي بأنَّ المروءات تحمل صاحبها على السلوك الإيجابي، وتجاوز النقد السلبي للمجتمع إلى مجالات العمل التي تسبب لمطاردة السلبيات ومواجهتها بالمبادرة ومنح المثال العملي المتعاون.

إنَّ هذا المثال العبقري يفتح الشرعية أمام طبيعة الوالدية التي يسعى إلى إحلالها في النموذج المعرفي والأخلاقي الإسلامي في حياة الأحياء.

٢/ ١- علامات حضور النُّبل والمروءات في القيام

بالمسئوليات لدى الطبري في تفسيره[١٨/ ٢٠٦-٢١٨]:

أولًا- قرر الطبري حاجة الوالدية إلى مجتمع يعين على القيام بمسئولياتها.

ثانيًا- يظهر من مرويات الطبري وظهور وعي الوالدية بمناطق الضعف الإنساني، وعلامات ذلك الضعف، وهو ما تمثل قي قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾.

ثالثًا- ثمة إيحاءاتٍ نقدية للمجتمع الذي لا يتنبه إلى رعاية مناطق الضعف، وهو ما حمل موسى بمنطق الوالدية والمروءة أن يتقدم لمعاونة المرأتين اللتين (١٨/ ٢٠٨) كانتا تذودان غنمهما عن الماء حتى يصدر عنه مواشي الناس ثم تسقيان ماشيتهما لضعفهما».

رابعًا- ثمة ظهور وعي بأهمية التحرك الإيجابي والمبادر لمساعدة مناطق الضعف، وأن ذلك من ضرورات المروءة التي يدعمها الشرع بمنظومته الأخلاقية، وهذه المبادرة الإيجابية ناتج إعدادٍ جيد للوالدية شمل ما يلي:

أ-الملاحظة الدقيقة للسلوك المجتمعي.

ب-التنبه للسلوك غير الطبيعي في حركة الحياة.

ج-جمع المعلومات التي تعين على تفسير السلوك تمهيدًا لاتخاذ قرارٍ بشأن تعديله إذا لزم الأمر.

خامسًا- ظهور ما يشي إلى أنَّ الوالدية مسئولية قد تتجاوز الوالد لتكون مسئولية الولد إذا نضج، وعجز والده عن العمل، ويكون توزيع الأدوار كما يلي:

أ-الرعاية الوالدية من الوالد تكون برعاية توجيه، وإشراف، ومتابعة، وتفقُّد، ونُصح، وهو ما نهض به شعيب لابنتيه في القصة.

ب-الرعاية الوالدية من الولد، وتكون بقبول التوجيه، والعمل رحمةً بعجز الوالد، وتقديرًا لسابق عمله وجهده والاستجابة لمتابعاته ونصحه وتفقُّده.

سادسًا- ظهور ما يوحي بأنَّ المروءة حاملة صاحبها على خدمة الخلق، وأنَّ شكر النعمة بذل ناتجها لرحمة الناس، يقول الطبري (١٨/ ٢١٢):

«ذكر أنه عليه السلام فتح رأس بئر، كان عليه حجر لا يطيقه إلا جماعة من الناس..». وقد كان ذلك الفعل تمكينًا لمن لا يستطيع أن يستقي من السقيا.

سابعًا- يظهر من تفسير الطبري (١٨/ ٢١٦) أنَّ المروءة تمنع صاحبها من الجزع عند الفقد والفقر، والتوجه إلى الله تعالى بشكاية حاله، والتوكل

عليه سبحانه، وأنَّ ذلك الفقد والفقر لا يمنعان بحالٍ من بذل المروءة للناس متي قدر الإنسان على ذلك بموجب ما تفرضه الوالدية من القيام بمسئوليات هذه المروءة.

وقد ترجم موسى عليه السلام ذلك الامتناع من الجزع من أثر الجوع الشديد الذي تعرض له، يقول الطبري (١٨/ ٢١٧):

« كان نبي الله مجهدًا». « وما سأل ربه إلا الطعام».

وهذا نوعٌ من الرضا عن الله تعالى يحفز مادة المروءة في النفس التي تتحرك بموجب حواكم المروءة، ويدفع إلى تحمل المسئوليات التي تفرضها قوانين الوالدية في النموذج المعرفي الأخلاقي في الإسلام في حركة الحياة.

٢/ ١- علامات حضور النبل والمروءة

في القيام بالمسئوليات لدي القرطبي في تفسيره[١٤/ ٢٦٧-٢٦٩]:

أولًا- قرر القرطبي أن تأمين الوجود المادي لمن يفقده من أبناء المجتمع من فروض المروءات التي يلزم القائمين بالمسئوليات الوالدية، والسعي في طرد علامات الخوف التي تحيط ببعض مناطق الضعف في حركة الحياة التي تقسو على بعض الناس، يقول (١٤/ ٢٦٨) :

كانت المرأتان: «تذودان غنمهما عن الماء خوفًا من السقاة الأقوياء».

ثانيًا- قرر القرطبي أن مقتضيات المروءة تحمل المسئولية الوالدية على رحمة المرأة بشكلٍ عام، وعلى رحمتها في مواطن القسوة والمعاناة بشكلٍ خاص.

ثالثًا- قرر القرطبي أنَّ مقتضيات المروءة تحمل المسئولية الوالدية على تقدير عجز الآباء عندما يكبرون، ورحمة ضعفهم فيمن يتحملون مسئولياتهم من الأبناء والبنات، وهو بعض سبب ذكر تعليل خروج البنات للعمل رحمةً بوالدهما الشيخ العاجز الكبير، واستجابة مروءة موسي لمساعدتهما في التخفيف من معاناة طلب الرزق بما تفضَّل عليه من قدرة وقوة.

رابعًا- قرر القرطبي أنَّ النهوض بالمسئوليات يلزمه تحصيل ما يلي:

أ-دراسة المجتمع، والكشف عن مناطق الضعف فيه مما تحتاج إلى معاونة ومساعدة من قطاعات المصابين، والمضطهدين والعَجَزة... إلخ.

ب-دراسة احتياجات الناس، والسعي نحو توفير الحد الممكن منها بصورةٍ كريمة طيبة، فقد أشار القرطبي أن المرأتين لضعفهما كانتا تسقيان من فضل ما في الحوض من الماء، بكل ما فيه من قلةٍ وعكارة، فجاء موسى ورفع لهما صخرة البئر ليستقيا من النبع الصافي الوفير.

إنَّ قيمة هذا المثال في تفسير القرطبي يكمن في عرضه بما يجعل من المروءات فقهًا، وقواعد اجتماعية يمكن ترجمتها إلى أعمالٍ مؤسسية وقوانين منظمة، وقواعد حاكمة ضابطة.

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة بالتحليل ثمانية مشاهد قرآنية، موزَّعة على أربعة مباحث توزعت على ما يلي:

١ -طُهر البدايات (البيولوجية/ والاجتماعية).

٢ -طُهر الإقامات.

٣ -طُهر الكفالات.

٤ -طُهر القيام بالمسئوليات.

وحرصت الدراسة على رعاية التنوعات الإنسانية التي نهضت بقيم الرعاية الوالدية، كما حرصت على رعاية التنوعات التي استقبلت قيم الرعاية الوالدية، وهذه الرعاية للتنوعات الجنسية، والمكانية، والزمانية إنما كانت مقصودةً لتوسيع دوائر الاستلهام المعاصر.

وقد اخترت لها عنوان : (السفينة أو الطوفان)؛ لأنَّ السفينة في الثقافات العالمية رمزًا للنجاة والحماية، وتأمين الحياة، وطريق العبور إلى السعادة، وطريق الإنقاذ على ما يقرره (جي سي كوبر) في [الموسوعة المصورة للرموز التقلدية، جي سي كوبر، ترجمة مصطفى محمود، المركز القومي للترجمة ، المشروع القومي للترجمة، ع ١٧٢٧ سنة ٢٠١٤م] (ص ص ٥٢٧٠٥٢٩).

ثم إن السفينة رمزٌ للنجاة في الثقافة الإسلامية، في تجليها أداة نجاة عندما جاء الطوفان، وفي تجليها وسيلة أمانٍ وإنقاذ وعبور من المخاطر في حديث الأخذ على أيدي الذين هموا بخرق السفينة.

ومن ثمَّ فإنَّ الدراسة ترى في إعادة فحص الكتاب العزيز سبيلًا وسفينة لمواجهة مخاطر الجرائم الاجتماعية التي هي الطوفان الذي تبدت بعض نذره وعلاماته في الوجود الحي الراهن.

وقد حرصت هذه الدراسة أن تلوذ بمنجز المُفسرين القدامي، في تنوع مناهجهم، وحرصت ألا تستنبط شيئا يخدم بيان الاستراتيجية القرآنية في مواجهة الجريمة الاجتماعية بعيدًا عن قواعد التفسير وأصوله، وفي مقدمتها لغة الآيات الكريمة.

وقد كشفت هذه الدراسة/ المحاولة عن عدة نتائج بالغة الوضوح، يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولًا- ظهور عناية الكتاب العزيز بقضية حماية النشء في كل المراحل العمرية والاجتماعية.

ثانيًا- ظهور ارتقاء قضية (حماية الذريَّة) و(حماية الأسرة) إلى صنوف المقاصد القرآنية الكبرى.

ثالثًا- ظهور تنوع صور عرض مواقف الرعاية الوالدية في القرآن الكريم من جهات القائمين بها، والمتعرضين لثمراتها.

رابعًا- ظهور شمول العناية القرآنية بمناطق الضعف الإنساني وتوجيه قيم الرعاية الوالدية لها.

خامسًا- ظهور حرص الكتاب العزيز على توسيع دوائر حركة الرعاية الوالدية لتشمل:

- الأولاد.

- الزوجة، والزوج.

- الأسرة.

- المجتمع.

سادسًا- ظهور التضفير بين الشريعة، والمروءات في بيان مسئوليات الوالدية.

سابعًا- ظهور رعاية القرآن الكريم لخصوصيات النوع الإنساني الموزع على (الرجل-المرأة) وخصوصيات أحوال كل منهما من حيث السن والقدرة والعجز، والحالة الاجتماعية، والإقامة والسفر... إلخ.

ثامنًا- ظهور الوعي بأنَّ تعديل السلوك، ودعم الإيجابية أصول مستقرة في استراتيجيات الرعاية الوالدية القرآنية، وهو ما يجعل من أمر الإصلاح ممكنًا في كل حال، وكل وقت.

المراجع:

١ -جامع البيان عن تأويل آي القرآن = تفسير الطبري، ابن جرير الطبري، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحث والدراسات العربية الإسلامية بدار هجر، القاهرة ط سنة ١٤٢٢-٢٠٠١م.

٢ -الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، تحقيق أبي إسحاق إبراهيم إطفيش، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ط٣ سنة ١٩٨٧م.

٣ -الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، جي سي كوبر، ترجمة مصطفى محمود، المركز القومي للترجمة، المشروع القومي للترجمة، ع ١٧٢٧ القاهرة ط١ سنة ٢٠١٤م.

٤ -النُكت والعيون = تفسير الماوردي، للماوردي، تحقيق خضر محمد خضر، دار الصفوة بالتعاون مع وزارة الأوقاف، القاهرة ، الكويت، ط١ سنة ١٤١٣هـ= ١٩٩٣م.

٥ -الوالدية ودعم السلوك الإيجابي.. دليل عملي لحل مشكلات طفلك السلوكية، ميم هاينمان، وكارين شيلدز، جان سير جاي، ترجمة عزيزة محمد السيد، المركز القومي للترجمة، المشروع القومي للترجمة ، ع ١٨٠٣ ، القاهرة، ط ١ سنة ٢٠١١م.

الفهرس

المقدمة ٧
أولاً طُهر البدايات ١٣
(ثانيًا) طُهر الإقامات ٢٩
(ثالثاً) طُهر الكفالات ٥٢
(رابعًا) حضور النُبل والمروءة في القيام بالمسئوليات ٦٩
الخاتمة ٨٩
المراجع: ٩٣

دار البشير للثقافة والعلوم